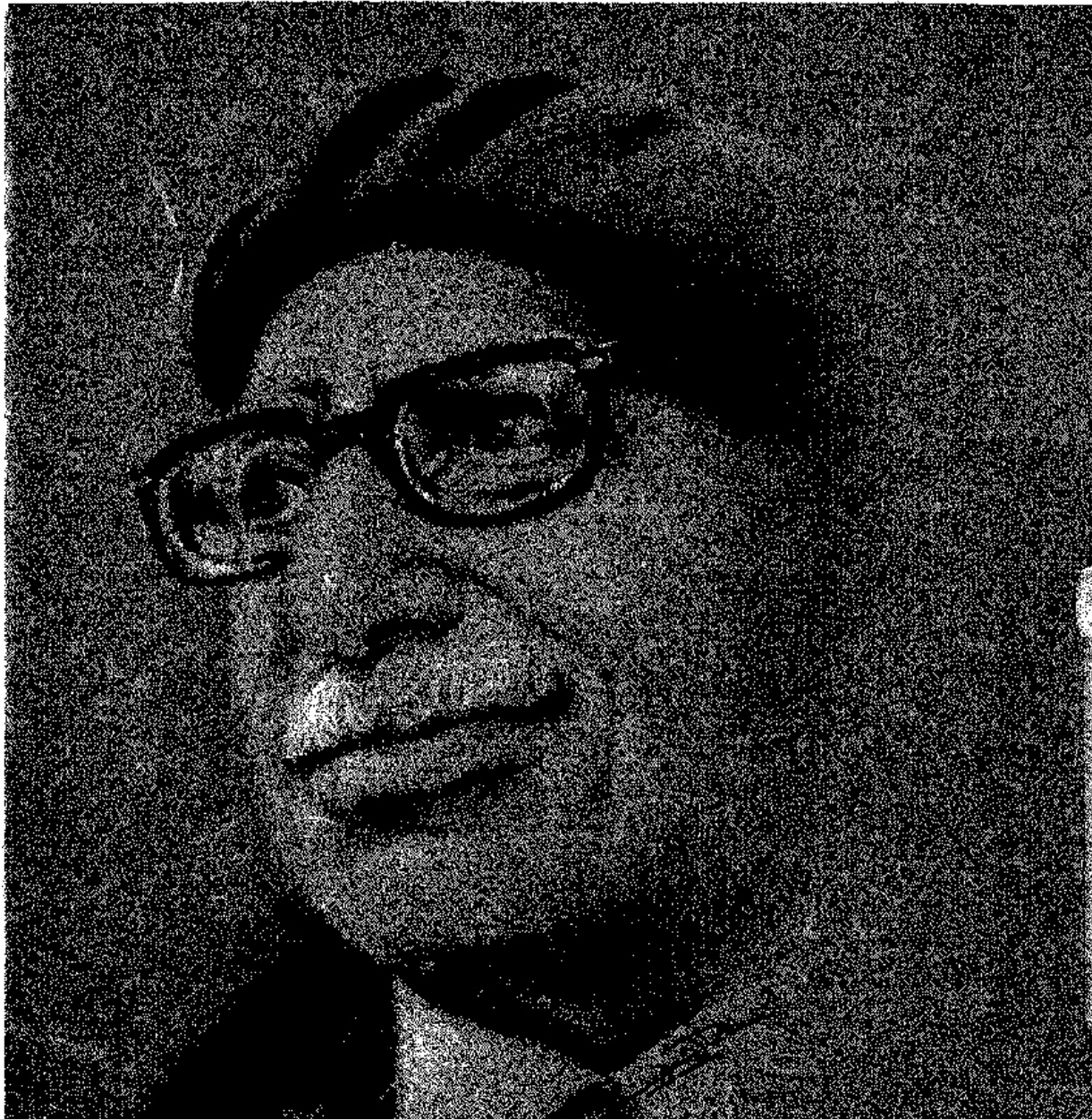




عَمَّ الشَّيْطَانِ

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

عمد الشيطان

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البهالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد علي (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت خمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما في التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

— ٤ —

١٩٤٥	٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية)
١٩٤٩	٢٣ — الملك أوديب (مسرحية)
١٩٥٠	٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية)
١٩٥٢	٢٥ — فن الأدب (مقالات)
١٩٥٣	٢٦ — عدالة وفن (قصص)
١٩٥٣	٢٧ — أرى الله (قصص فلسفية)
١٩٥٤	٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية)
١٩٥٤	٢٩ — تأملات في السياسة (فكر)
١٩٥٩	٣٠ — الأيدي الناعمة (مسرحية)
١٩٥٥	٣١ — التعادلية (فكر)
١٩٥٥	٣٢ — إيزيس (مسرحية)
١٩٥٦	٣٣ — الصنفقة (مسرحية)
١٩٥٦	٣٤ — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية)
١٩٥٧	٣٥ — لعبة الموت (مسرحية)
١٩٥٧	٣٦ — أشواك السلام (مسرحية)
١٩٥٧	٣٧ — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية)
١٩٦٠	٣٨ — السلطان الحائر (مسرحية)
١٩٦٢	٣٩ — يا طالع الشجرة (مسرحية)
١٩٦٣	٤٠ — الطعام لكل فم (مسرحية)
١٩٦٤	٤١ — رحلة الربيع والحريف (شعر)
١٩٦٤	٤٢ — سجن العمر (سيرة ذاتية)
١٩٦٥	٤٣ — شمس النهار (مسرحية)

— ٥ —

٤٤ —	مصير صرصار (مسرحية)	١٩٦٦
٤٥ —	الورطة (مسرحية)	١٩٦٦
٤٦ —	ليلة الزفاف (قصص قصيرة)	١٩٦٦
٤٧ —	قالبنا المسرحي (دراسة)	١٩٦٧
٤٨ —	بنك القلق (رواية مسرحية)	١٩٦٧
٤٩ —	مجلس العدل (مسرحيات قصيرة)	١٩٧٢
٥٠ —	رحلة بين عصرين (ذكريات)	١٩٧٢
٥١ —	حديث مع الكوكب (حوار فلسفي)	١٩٧٤
٥٢ —	الدنيا رواية هزلية (مسرحية)	١٩٧٤
٥٣ —	عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٤
٥٤ —	في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٥
٥٥ —	الحمير (مسرحية)	١٩٧٥
٥٦ —	ثورة الشباب (مقالات)	١٩٧٥
٥٧ —	بين الفكر والفن (مقالات)	١٩٧٦
٥٨ —	أدب الحياة (مقالات)	١٩٧٦
٥٩ —	مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير)	١٩٧٧
٦٠ —	تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات)	١٩٨٠
٦١ —	ملاح داخلية (حوار مع المؤلف)	١٩٨٢
٦٢ —	التعاضدية مع الإسلام والتعاضدية (فكر فلسفي)	١٩٨٣
٦٣ —	الأحاديث الأربعة (فكر ديني)	١٩٨٣
٦٤ —	مصر بين عهدين (ذكريات)	١٩٨٣
٦٥ —	شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩)	١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
نيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (نرى كنتنتز بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إلهيان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

— ٧ —

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتسز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتسز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الخروج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت الحمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتسز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتسز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتسز) واشنطن عام ١٩٨١ .

— ٨ —

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان في خطر : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣
وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣

— ٩ —

- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .
- يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
- مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
- مع : كل شيء في مكانه .
- السلطان الحائر .
- نشيد الموت .
- لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .
- الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .
- محمد ^{صلى الله عليه وسلم} : ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
- المرأة التي غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج بيرلين .
- عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

— ١٠ —

— يا شيطان الفن ! لقد منحتك كل شيء .
كل قطرة من قطرات دمي هي لك .
وكل خلجة من خلجات نفسي هي لك .
فإن ظفرت بساعة من ساعات الهناء فهي لك .
وإن نمت فأنت ملك على عرش أحلامي .
وإن أفقت فأنت المالك لزمام أيامي .
شبحك لا يذهب عني في أي زمان ولا أي مكان .
إنك لا تتركني إلا وقد صرعتي المرض .
ولم يبق في رأسي الكليل ولا جسمي النحيل شيء تأخذه .
فإذا فتحت بعدئذ عيني قليلا وبدرت بادرة يقظة فهي أيضا لك .
يا شيطان الفن ! لقد أخذت مني كل شيء .

فماذا أعطيتني أنت ؟

— أعطيتك لذة « الخلق » .. !

تلك اللذة التي لا يعرفها غير إله ! ..

(ت . ١)

عهد الشيطان

— ١٣ —

وقع ذلك الحدث الذى أرويه فى ليلة من ليالى الشتاء فى منتصف الليل ... فى تلك الساعة الرهيبة التى أجمعت الأساطير على أن فيها يحدث كل جلال من الأمر . وكنت جالساً إلى مكتبى أقرأ تحت نور ضئيل . وقد تكدست أمامى كتب يعلوها التراب . وكان الكتاب المفتوح بين يدى قصة « فوست » ، وكنت قد بلغت منها تلك الصفحات التى يجلس فيها العالم الشيخ بين كتبه فى إحدى الليالى وقد تهدل شعره الأبيض على منكبيه وهو قانط من العلم ، راغب عن الحياة التى تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أن فى مقدورها أن تعطيه البشر . وقد جلس يحصى على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التى عاشها . ماذا صنع فيها ؟ وماذا ربح ؟ إنه لم يعرف الشباب قط . ولم يدخل قلبه ذلك الفرح بالحياة قط . ولم تدرك نفسه معنى الطمأنينة والابتسام . حتى فى ذلك الزمن

— ١٤ —

الجميل يوم كان خلانه يقولون « الحب » كان هو يقول
« المعرفة » ولقد جد حقيقة في سبيلها وأحاط بكل ما سمح لعقل
إنسان أن يحيط به . لقد أعطى العلم كل حياته . والآن وقد
أوشكت تلك الحياة أن تذهب . الآن وهو في طريق الأوبة إلى
ذلك المكان المجهول الذي جاء منه . (لو أن في الإمكان أن نسميه
مكاناً !) ألا تراه عائداً إليه بصفقة المغبون ١٢ أما العلم فإنه الآن
يسخر منه بقدر ما يسخر هو من نفسه، إذ أضاع من أجله حياة
كاملة فيها أشياء كثيرة غير العلم . إنه خارج من الحياة ولم يحمل
زهرة ولم يستنشق عبيراً من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره
ووروده وغزلانه . إنه لم يملأ قلبه بشيء . وإنما قد ملأ رأسه بكلام
كثير سوف يأكله الدود ، كما قال « هاينى » ، مع ما سوف يأكل
من لحم تلك الجمجمة الكبيرة ..

كل هذه الخواطر كانت تدور في خلد العالم « فوست » وهو
جالس أمام كتاب في علم الفلك تحت نور ضئيل في حجرة كالقبو
من حجرات القرون الوسطى . ولم يكن حوله غير كتب مكدسة
يعلوها التراب وغير سكون مطبق مخيف . ولم يكن بالمكان أحد.

— ١٥ —

ومع ذلك فقد سرت في جسم العالم المتهدم رعدة . إذ شعر أنه ليس وحده في المكان . فتردد قليلاً ثم استدار بعينه المنطفئتين يبحث في أركان الحجرة ، فلم يجد أحداً غير ظلال نور المصباح تتلاحق فوق الحائط القاتم كالأشباح اللاعبة . فتملكه خوف لم يدر سببه ... ووضع وجهه في كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوء الخاطر . وإذا صوت هامس يلقي في أذنه :

— فوست ! فوست ! لقد سمعت ما دار في نفسك !

فجمد الدم في عروق الشيخ ، واستطرد الصوت :

— لا تخف . ألا تعرف من أنا ؟

لم يجر العالم جواباً ولم يجرؤ على الحركة وظل في جلسته كتمثال من الشمع .

فاستأنف الصوت :

— أنا الذى يستطيع أن يمنحك ما تطلب ...

هنا دبّت القوة في نفس الشيخ ، وزال عنه الخوف والتفت إلى مكان الصوت فأبصر وجهاً غريب السحنة لا يشبه وجوه البشر ، يسم له ابتسامة عجيبة . ولم يجد لهذا الوجه جسماً ، فقد

— ١٦ —

كان محاطا بالظلام . وتمالك الشيخ وتحامل ثم قال في صوت
واجف :

— من أنت ؟

فنظر إليه الوجه نظرة ثانية وأجاب :

— وهل يعينك كثيراً أن تعرف من أنا ؟

— من أنت ؟

— دائماً تريد أن تعرف . دائماً حب المعرفة ! .. أيها الأحق

الفانى ! .. أما يكفيك أنى أعطيك ما تطلب ؟ كل ما تطلب ؟

— من أنت ؟

— الشيطان .

دهش العالم ونظر إلى الوجه من جديد ، فألفاه ييسم تلك

الابتسامة التى لا تتغير . فردد فى بطاء ، وهمس كأنما يخاطب

نفسه :

— الشيطان ..

ودنا الوجه قليلا من الشيخ وقال فى نبرة لطيفة :

— أتخافنى ؟

— ١٧ —

— الشيطان ...

— لا تخف ، انتظر .

وفي الحال أبصر الشيخ ذراعين وقدمين وبقايا جسم آدمي تأتي
طائرة طائعة من أنحاء الحجرة المختلفة وتلتصق بالوجه حتى صار
إنسانا ، وتغير الوجه فصار كوجوه البشر ، ومد ذلك الإنسان
يده إلى كرسي بجانب الشيخ ، وجلس وهو يقول كال مخاطب
لنفسه : « ها أنذا إنسان مثلك ، ينبغي أن أكون إنسانا مثلك
حتى تفهمنى ، إنك أيها الإنسان لا ترى إلا من كان على
صورتك ! إني في خدمتك » .

هدأ روع العالم قليلا ، وتذكر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق
بنفسه ، وتبرم بحياته ؛ فاهتز في مقعده وصاح :

— أيها الشيطان ، أعطني .. أعطني ..

— اطلب ما شئت .

— الشباب .

لفظها الشيخ الفاني من أعماق قلبه المتداعي ...

فأجاب الشيطان في تودة :

(عهد الشيطان)

— ١٨ —

— لك ما طلبت . ولكن ... ما تعطيني أنت في مقابل هذا ؟
إن الشيطان لا يعطى لوجه الله !
فقال الشيخ من فوره :
— أعطيك العلم .. كل ذلك العلم الذى اكتنته مدى ثمانين
عاماً .

فقهقه الشيطان :
— لا حاجة لى إلى هذه البضاعة ، علمك لا ينفعنى . إلى أريد
منك شيئاً آخر .
— ماذا ؟

— نفسك .
فلم يتردد الشيخ :
— هى لك .
عندئذ أسرع الشيطان ومد يده فى الهواء والتقط قرطاسا نشره
تحت المصباح وتناول ذراع الشيخ ، ففزع الشيخ :
— ماذا تصنع ؟

— لا تفزع من شيء . أريد قليلا من دمك تكتب لى به صكاً

— ١٩ —

على هذا القرطاس . هو عهد بينى وبينك : أعطيك الشباب
وتعطينى نفسك ...
فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه ، وتناول الشيطان العهد
المكتوب ، ورفع يده فى الهواء ، وعاد فوضعها على جسم
الشيخ ، فإذا شيخوخته تزول عنه كما تزول الأوراق الذابلة عن
الشجرة الفتية . وإذا العالم الهرم قد أنقلب فتى فى العشرين جميل
الطلعة بسام الحيا ، مفعم النفس بالسرور ، متوثب القلب
للحب ..

* * *

لم أكد أنتهى إلى هذا الموقف من قصة « فوست » حتى
طرح الكتاب وهمت فى وادى التأملات ..
كان الذى يملك على لى فى ذلك الوقت هو حب
« المعرفة » . كانت كل أحلامى أن أفتح فى كل صباح نافذة تطل
على عالم مجهول من عوالم هذا الكون السابح فى بحار الأسرار .
كان من يكشف لعينى المستطلعة جديداً هو الخلق عندى أن
أعطيه ما شاء من نفسى . فى تلك الليلة صحت فى الحجرة :

— ٢٠ —

— أيها الشيطان ! أيها الشيطان ! ابرز إليّ وخذ مني ما تشاء
وأعطني ما أريد .

و لم يبرز إليّ بالطبع أحد . ولم تنشق الجدران و لم تكن الصبيحة
التي لفظتها إلا صوتاً مدوياً داخل نفسي ، وهو في الحقيقة همسة لم
يبلغ صداها باب الحجرة ؛ على أنني لم ألبث أن رحت في شبه
إغفاءة . نصب فيها الخيال مسرحاً ، وإذا الشيطان في ملابس
« مفستو » الحمراء ، ويده على مقبض سيفه ، والابتسامة الخبيثة
الساخرة على شفثيه وهو ينظر إلى قائلاً :

— أنا ديتني ؟

فهمست :

— نعم .

— ماذا تريد مني ؟

— المعرفة .

فضحك ضحكة عالية طويلة ، اهتزت لها الريشة القائمة على

قرنه :

— هل تدرك مدى هذه الكلمة ؟

— ٢١ —

ففطنت إلى مراده وصحت مستدركا :

— نعم . نعم . أدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علماً بمدى هذه
الكلمة . إني ما أردت منك المستحيل . وما قصدت أن تعطيني
« المعرفة » ذاتها . إنما أردت أن تمنحني « حب المعرفة » . أريد أن
تمنحني تلك النفس التي تعيش للمعرفة . أريد أن تعطيني ما أخذت
من « فوست » . أعطني « نفس » فوست التي أخذتها منه . أريد
أن تكون لي نفس « فوست » أو نفس « جوته » !

— وماذا تعطيني أنت في مقابل هذا ؟

— كل ما تطلب .

— الشباب .

— هو لك .

قلتها في غير تردد . فنظر إليّ « مفسو » نظرة طويلة . نظرة
العجب أو الإشفاق — لو أن الشيطان يشفق أحياناً — أو نظرة
التاجر الماكر لصفقة خاسرة وقعت من غرق قاصر . وقال :

— سوف تندم .

— أبداً .

— ٢٢ —

— أفهم أن ييذل كل غال في سبيل « الشباب » . أما أن
« الشباب » هو الذى ييذل ... اسمع نصحى أيها الفتى . إلى لم
أعتد إخلاص النصيح لأحد . ولكنى أقول لك : لا شىء فى الوجود
يعوض الشباب !

— المعرفة ، المعرفة ، المعرفة .

فضحك الشيطان ضحكة صغيرة هازئة ، وقال كالمخاطب
لنفسه :

— كان فوست يقول ذلك أيضاً فى صباه !

فقلت فى تحمس أعمى :

— حب المعرفة هو شباب العقل ، هو الشباب الأبدى ، هو
السمو الإنسانى الذى سجدت له الملائكة إلا أنت ، أيها المتطاول
على عرش فكرنا النورانى !

— عرش فكركم النورانى ! ماذا أقول لهذا الفتى ؟

— إنى أعرفك وأبغضك ، إنك هنا على هذه الأرض لا عمل
لك إلا أن تطفىء هذه المصاييح العظيمة التى تزين هاماتنا ، إن فى
يدك عصاً طويلة كتلك التى كان يحملها « عفاريت الليل »

— ٢٣ —

يطفئون بها في مطلع الفجر « مصاييح الغاز » في الطرقات .

— ما أسخف مصاييح الغاز !

— نعم ، ولقد ذهب عهدنا بظهور الكهرباء ، واختفت معها « عفاريت الليل » بعصيا . أنت أيضاً قد آن لك اليوم أن تختفى بسيفك وریشتك ، فما من أحد يرضى اليوم أن يبيع « مصباحه » من أجل شيء .

— لقد باع « فوست » مصباحه من أجل فتاة .

— كان ذلك مصباحاً من الغاز .

— من الغاز أو من الكهرباء ، النور هو دائماً النور !

— يا عدو النور . أعطني النور ونخذ مني ما تشاء .
فقال الشيطان :

— O.K.

وخلع قلنسوته ومسح بها الأرض بين يدي إغراقاً في التحية على طريقة فرسان إسكندر دوماس ، وتحرك للانصراف ، فاستوقفته :

— ألا نكتب عقداً ؟

— ٢٤ —

— لا ضرورة منك للعقود والعهود . إلى واثق بشرفك .

— ولكنى أنا ... معذرة .. إني لا أثق بشرفك .

— جربنى هذه المرة .

وانحنى لى انحناءة كبيرة ثم اختفى .

* * *

مضى على تلك الليلة ثلاثة عشر عاما التهمت فيها الكتب التهاما
وأحطت بمختلف العلوم والفنون علما وعشت مع الفلاسفة
والأدباء والموسقيين والمصورين وأحببت فيها « المعرفة » حباً
كالجنون . فلم أكن أطيق صبراً على جهل فرع من فروعها . وكنت
أحياناً لا أملك من النقود غير الضروري لأكلى بقية الشهر وأصادف فى
واجهة الخانات كتاباً أو كتائين ، فما أحجم ، وأدفع فيهما ما
معى ، وأتبلغ طول أيامى بمرق الأرز ونقيع الشاى . وذهب بى
الجنون إلى حد الرغبة فى الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديب
عليه . فنظرت فى كتب الفلك والعلوم الروحانية والرياضيات
العليا . وكانت أيام راحتى تنفق فى هياكل الفن ومتاحف التاريخ
الطبيعى ودور الكتب والآثار . وكانت لى جلسات طويلة فى

— ٢٥ —

ركن قهوة صغيرة منفردة آوى إليها وحيداً أفكر ست أو سبع ساعات متتالية في مسائل عويصة من مسائل الفلسفة المطلقة ، أو قضايا الفكر ، أو مشاكل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكم هدمت في رأسى مدنيات وأقمت بدلها حضارات خيالية ذات نظم مثالية على نحو ما فعل أفلاطون وتوماس مور . ولكم ألحدت ثم آمنت وضللت ثم اهتديت . ولكم كتبت ومزقت . ولكم جهدت في سبيل تلك اللذة العليا التى حسبته غاية الإنسان التى ليست بعدها غاية . ولقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرق وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش . ولقد صرت كالهواء أو كالملائكة أسهر الليل ساجحاً فى أجواء الفكر فوق كتاب مفتوح تحت مصباح مضىء ، حتى إذا جاء الصباح رقدت وهربت من الناس والضجيج . إلى أن نبهتني آخر الأمر خادم عجوز قائلة :

— حياتك هذه ليست حياة . انظر إلى وجهك فى المرأة !
فنظرت ملياً فى مرآة خزانة الملابس فارتعت . ما كل هذه التعجيد حول عيني . وما هذا الظهر الذى تقوس وانحنى .

— ٢٦ —

وما هذا التحول وهذا الشحوب .. أترانى قد نسيت جسمى طول
هذه الأعوام ؟ أم تراه الشيطان قد تقاضى الثمن دون أن أعلم ؟
وهالنى منظرى وأنا أضع إصبعى على تلك الخطوط المخيفة على
صفحة وجهى كأنها صك بزوال زهرة الحياة إلى الأبد ، فما
تمالكك أن صحت :

— الشباب . الشباب . لقد أخذ الشباب !

في النوم

إذا جن الليل ، ورقد الناس ، وسكنت الكائنات ، قام هو في
خفة الطائر ، ورقة النسيم ، ينسج قصصه العجيبة بأنامل لا
يعرف وصفها إنسان . ذلك هو الحلم . فنان حاذق يأتي
بالمعجزات في رؤوس النائمين .

وهو ككل فنان محترف كتب عليه الإنتاج في كل ليلة ، لا يرا
من الإسفاف ، ولا يستطيع أن يجيد في كل حين . فهو لا يخرج
دائماً في كل الرؤوس آيات متناسقة البناء شيقة الحوادث مستقيمة
التفكير . إنه هو أيضاً ضحية « الروتين » الذي يقتل الفنانين .
لكنه إذا أبدع أوحى . وإني لأعرف كتاباً يستلهمون الحلم . وإني
لأذكر خبر كاتب روسي أو مجري كان يأكل قبل النوم حتى
الكظة طالباً التحمة راغباً في الكابوس يصور له من الحوادث
المخيفة ما ينفعه في استنباط قصة . أما أنا فأبغض الكابوس

— ٣٠ —

ولا أريده ، ولو ألهمنى خير القصص فإن لحظة أقضيها فى جوه الخائق لأشق على نفسى من الجحيم . غير أنى لا أنسى رؤيا منسجمة الفكرة متصلة الخيوط ، رأيتها ذات ليلة ، فاستطاعت أن تشغل بالى فى الصباح ، وأن تقبضنى على القلم ، وأن تستكتبنى هذه السطور :

رأيت أنى معها فى حجرة واحدة . أما هى فعادة حسناء.ذلك النوع من الحسن الذى أحبه . ولست أدرى كيف عرف الحلم ذوقى فاختار لى مثل هذه المرأة ! جلسنا معاً وهى فى ثوب أخضر خفيف . وكأن بيننا حباً قديماً ، والحلم خير من يلعب بالزمن كما يلعب المصور بالألوان . فلم نكن نعيش ، أنا وهى ، إلا فى ثوان .. لكنها كالأعوام . لها ماض وذكريات . يحيط بنا إطار مصنوع من جوهر لا أدرى ما هو ، لعله ما يسمونه « السعادة » . وفجأة ، طرق علينا الباب . وظهرت خادم تعلن فى صوت خافت أن زوج الفاتنة قادم . هرج واضطراب وقعا فى الحجرة . فقفزت أنا من مكانى أبحث عن حذائى . ونهضت هى فى سرعة الريم إلى المرأة تصلح من شأنها . وتملكنى الوهم وخرج الموقف فعجزت عن

— ٣١ —

إدخال قدمي في الحذاء ، ورأت هي ما أنا فيه . فصاحت بي :

— عجل بالخروج !

— لا أحب إلى نفسي الآن من الخروج سالما . لكن الحذاء ..

— ألا تريد أن تنصرف ؟

— حافيا ؟ هذا لا يجوز . وهل أنت ترضين لي الخروج على

هذه الحال ؟

فلم تجب وجذبتني من ثيابي ، ودفعتنى إلى الباب ، فخرجت
أحمل حذائي في يدي وإذا أنا — وجهها لوجه — أمام رجل وسيم
الطلعة أنيق الهيعة حيائي باسماء فارتجفت ونظرت إلى عينيه ، فلم
أرفيهما غضبا ولا سخرية . وأشار لي في كياسة أن أضع الحذاء في
قدمي على مهل . فقلت متلعثم اللسان :

— أشكرك يا سيدي على هذا اللطف ...

وحاولت أن أفعل ما أراد فلم أستطع ، فلقد حزن الحذاء مرة
أخرى ، وأنى أن يلين لتوسلاتي الحارة ولعرق المتصبب في هذا
الظرف المؤلم . وخرجت « الحسناء » زاهية كالقمر ، فما إن
رأت الرجل ، والرجل رآها . حتى وقع أحدهما في أحضان

— ٣٢ —

الآخر ، وقبلات ..

وشعرت في أعماق نفسى وقتلذ أنى لأصلح للبس الحذاء ولا
للانصراف ، ولا لصنع شىء في هذا الوجود ! فجلست القرفصاء
أنظر وأسمع ولا أدري لى مصيراً . وفرغا من القبل ولكنهما ظلا
متعانقين وهى تقول له :

— أهذا شغفك بى ؟! مضى عام دون أن أسمع عنك خبراً ! ..

— ألا تعرفين ما حدث ؟ لقد أمسينا من أصحاب الملايين .

— ملايين ؟! كيف ؟ كيف ؟ أخبرنى ! ..

— أنا الآن « مليونير » .

— أتقول حقا ؟ وافرحتاه ! . تعال فقص على كل ما حدث منذ

أن تركتنى وسافرت إلى تلك البلاد النائية !

وتناولت يده ، تقوده إلى الحجرة ، فعثرت قدمها الصغيرة
بشخصى الحقير ، ولم يزل موضوعا إلى جانب الحذاء . لكن أى حذاء .
إنى فيلسوف . كما إن هذا الرجل المحترم ، زوجا كان أو غير زوج ،
فيلسوف هو أيضا فيما يبدو لى . ذلك أنى لم أكد أسمع أن الرجل
صاحب ملايين حتى أدركت أن لا محل الساعة للبكاء على حب !
ورنت فى أذنى تلك اللحظة كلمة هائلة ضاحكة : « الذهب » ! كما

— ٣٣ —

رنت ولا ريب في قلب الحسناء فنسيت كل شيء . وصرت في
نظرها ، أنا وحذاءي على عتبة الباب ، كائنين متساويين ! نسيت
كل شيء وشيكاً لأن « الذهب » كلمة جليلة عظيمة . لها صوت
مدو مهيب كصوت حوافر جياد مطهمة على أرض من الرخام
الأصفر .. كلمة كال دخان السحري ترى خلالها القصور
والعروش والحلى والتيجان ! ونسيت أنا أيضاً كل شيء كان
ويكون . حتى ما أنا فيه من ذل وتعس . كما نسيت أن أنهض من
الأرض وأن أرفع يدي عن حذاءي الذي لم يوضع في قدمي ولن
يوضع . ومراي هذان السعيدان .. في حرص واحتياط حتى لا
يعثراي في طريقهما إلى الحجرة . فقلت في أدب وأخلاص :

— دوسا ، لا مانع عندي مطلقاً من أن تدوسا !

واستحوذت على مشاعر غريبة . لست أعلم لها إسماً بين
مشاعر الناس . فلم ألبث أن تقدمت نحو الرجل وقلت له في احترام
عميق :

— لقد أشرق النور في هذا البيت مذ حللت به . وإن سيدتي
كانت شديدة القلق كثيرة الهم لغيبكم الطويلة حتى أسعدها الله
أخيراً بأوبتكم الظافرة الميمونة .

(عهد الشيطان)

— ٣٤ —

فالتفت إلى الرجل في استغراب خفيف . ولكن الدهشة كلها كانت دهشة المرأة . ولم أمهلها حتى تفيق . فوجهت إليها من فوري الخطاب :

— أما كنت يا سيدتي تذكرينه دائما في شوق ولوعة؟ ها هو ذا قد عاد ولا ينقصكما الآن إلا خلوة تتبادلان فيها رقيق العتاب ، حتى تصفو القلوب ويتصل بينكما ما انقطع بطول الفراق . وانتظرت أن أحظى منهما بجواب . فلم ألق إلا سكوتا بارداً ونظرات فاترة . وتحركا آخر الأمر نحو الحجرة ودخلاها وأغلقا عليهما من دوني الباب . وأنا واقف جامد . وكأني لا أعيش . وثبت إلى نفسي قليلا . فإذا عرق يسيل من كل بدني . لماذا صنعت هذا وقلت هذا ؟ وهل سألتني واحد منهما أن أكون لهما رسول سلام ؟ وهل هما في حاجة إلى ، حتى يدخل قلبيهما الصفاء ؟ ومن قال إنهما كانا غاضبين ؟ إنهما الآن مثل كل متحابين مؤتلفين لا يطلبان إلى أحد أن يمشى بينهما بخير أو بشر . ينبغي أن أفهم الآن أي قد طردت من الفردوس حافي القدمين ..

وانتهى الحلم من تأليف قصته ، وسكت عن الكلام المباح وقد

— ٣٥ —

أدركه الصباح . واستيقظت فوجدت أنى حقيقة عارى الأقدام
وقد سقط اللحاف عنى . ولكن ستار النسيان لم يسدل فى رأسى
على الرواية . فقد تركت فى نفسى أثراً عميقاً . وطفقت أقول :
« حتى الحلم ، ذلك الفنان البارع ، لا يملك لمثل من ذلك الجوهر
الطيار الذي يقال له : « السعادة » غير مقدار قليل لا يشفى
الخليل » ! ..

« راديو م » السعادة

استعرضت في رأسي البارحة شريطا ذا ألوان من ذكريات الماضي . أما الألوان فكانت خضرة داكنة لأشجار الزيزفون والكستناء المحيطة بذلك الوكر الجميل المسمى « أورياج » ، ألفته يد الطبيعة في بطن واد سحيق من وديان « الألب » ، ليذكر البشر بالفردوس المفقود .

ولقد هبطت هذه الجنة في شهر أغسطس عام ١٩٣٨ أحمل حقيبة واحدة ، فيها « بذلة » واحدة وكتاب واحد : هو « العقد الفريد » لا بن عبد ربه بكامل أجزائه .

ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب ، ولم يكن شيء أبغض إلى نفسي في الأسفار من كثرة الحقائق ، فطال ترددي وأنا أجهز للسفر : أأحمل « بذلة » أخرى وأترك « ابن عبد ربه » ؟ واستقر عزمي آخر الأمر على إثارة « الزميل » أعبر به

— ٤٠ —

البحار والجبال ، وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه ، وأريه مناظر
لم ترها عينه ؛ فللأديب على الأديب حق ، وليس من الوفاء
حرمان ابن عبد ربه مثل هذه النزهة . فنبذت الثياب وأخذت
الأديب ، وانطلقنا ...

* * *

بلغنا جنة « أورياج » ، ونزلنا فندق « الروض » وهو بناء
جميل أقيم على بساط من العشب ، قد اضطجعت عليه حور من
الفرنسيات يتحدثن في ظل الأغصان المدلاة إلى ولدان وفتيان ،
أو يصغين إلى أنغام موسيقى يحملها النسيم ، تعزفها فرقة في شبه
ميدان وسط المصيف .

وكانت مائدة طعامي بالفندق في طرف ناء ، فلقد احتل من
نزل قبلي الأفاريز المشرفة على المناظر الرائعة ، ولكني لم أحرم مع
ذلك منظر مائدة إلى جوارى جلس إليها فتى وفتاة ،، قيل لي إنهما
تزوجا حديثا .

لقد كانا زهرتين ناضرتين في باقة « فندق الروض » . وكنت
أنا دائما وحدي ، ليس معي من رفيق غير « ابن عبد ربه » وقد

— ٤١ —

وضعته أمامي فوق المائدة إلى جانب زجاجة « الفيشي » .
نعم، لم يكن يخطر لي على بال أن هذا الأديب يلازمني على هذا
النحو في كل مكان ، لقد اعتدت ملازمته كما اعتدت من قبل
ملازمة عصاي .

فأنا لا أخرج من الفندق في الصباح ، ولا أعود في المساء ،
ولا أذهب إلى قهوة ولا إلى ملهى إلا ومعى « ابن عبد ربه » .
حقيقة أن في جوف هذا الأديب كثيرا من طلي الحديث ، وهو خير
أنيس وجليس في مثل وحدتي وعزليتي .

ولكن .. أما كتب لي أن أظفر بجليس أجمل منه سحنة وأعذب
منه صوتا ؟ لقد كنت أتأمل من طرف خفي هذين الزوجين
السعيدين ، فيخيل إلي أني أرى منهما أشياء . إنهما لا يتحدثان
كثيراً ، وكل منهما يأكل وهو مطرق ، ولقد لحظت أن الزوج ما
يكاد يفرغ من أمر طعامه حتى يترك امرأته ويختفي اختفاء لا
يظهر بعدها إلا على مائدة الوجبة التالية . وكان الذي يشغل
فكري وقتئذ البحث عن « قهوة » هادئة أجعلها مقراً لي وللأديب
الذي معي وللورق الذي في جيبى . فأنا لا مطمع لي في رياضة

— ٤٢ —

شاقة كتسلق الجبال ، ولا رياضة هادئة كلعب « التنيس » .
وليس في الناحية جدول قريب أصطاد منه السمك ، وهى
رياضتى الوحيدة التى أحذقها ... (أستغفر الله على كلمة
« أحذقها » وهو الشاهد العدل على مبلغ حذق إياها !) .
وعثرت آخر الأمر عند أقدام أشجار باسقة قد تهدلت أغصانها
كجدائل الشعر الكثيف ، على « قهوة » صغيرة فى شبه كوخ من
خشب نثرت حوله المقاعد والموائد . فقلت فى نفسى : ها هنا
مكانى . فاتخذت مقعداً فوق العشب ، والتفت أطلب الساقى
يخضر إلى فنجاننا من الشاى . فإذا أنا أمام ساقية كالبدر . وإذا
أخرى على باب الكوخ كالشمس . وإذا ثالثة وهى الصغرى تخطر
فى خفة الغزال بين الموائد ، نائرة قطرات اللطف والظرف ، فى
صورة ابتسامات ساحرات ، ذات اليمين وذات الشمال . إذا قلت
إنى فى حياتى لم أر أظرف من هذه الفتاة ما كذبت ، وإذا أقسمت
أن هذه الفتاة ما خلقت إلا لتلقى نظرات الإعجاب من الناس لما
حشت . الدليل تلك الأعين التى ترمقها من كل جانب ، وتلك
الأفواه التى تنادىها من كل مائدة . كان اسمها « فرانسواز » .

— ٤٣ —

وفرغت من دهشى قليلا فأجلست ابن عبد ربه على مقعد
خال بجوارى ، وأردت أن أشير إلى الفتاة لأطلب فنجان الشاي ،
وإذا غيرى يسبقنى :

— فرانسواز ! كأسا من البيرة .

فانتظرت لحظة . ثم هممت بندائها . وإذا صوت آخر :

— فرانسواز ! كوباً من شراب البرتقال !

فسكت مرغماً . ثم عاودنى الأمل فرفعت رأسى إليها وإذا
صيحة :

— فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفت فإذا ذلك الزوج الشاب الذى يهجر زوجته فى الفندق
بعد كل طعام ، قد جاء فى شبه ركض وجلس إلى مائدة قرب
مكان الفتاة، وطفق يحدثها حديثاً ازدحم به فمه، وهى تضحك أحياناً
ضحكاً رقيقاً يتأيل له غصنها الرقيق ، وأشرقت السعادة فى وجه
الشاب . وإذا صفأؤه قد عكسه صوت فتیان آتين بملايس
« التيس » يصيحون قبل أن يجلسوا !

— فرانسواز ! فرانسواز !

— ٤٤ —

فالتفتت إليهم الفتاة وابتسمت . ثم استأذنت محدثها وانطلقت إليهم . فاستقبلوها في شبه هتاف وظلوا لحظة يتضاحكون . هؤلاء فيما يخيل إلي فتيان من طلبة الجامعات . فإن هذرهم وضجيجهم وما يبدو من سنهم ينم عن ذلك . وكان أكبرهم سنأفتى معتدل القامة جميل المنظر في سروال « التنيس » الأبيض وقميصه الخفيف وسواعده العارية . وكان هو أكثرهم اهتماماً بأمر الفتاة . طفقت أنظر إلى كل هذا ، وذكرت أن ذقني لم يحلق منذ ثلاثة أيام ، وتلك أيضاً عادة من عاداتي . فأنا لا أفكر في ذقني وهندامي إلا مصادفة . ثم ذكرت قلنسوتي « البيرييه » التي تهبط إلى أذني كأنها « لبدة » وعصاي الغليظة وكتابي الضخم بغلافه السميك القديم . كأنه سفر من أسفار السحر والتنجيم . فأدر كت أن منظرى لن يؤهلنى إلى طلب فتجان الشاي في هذه القهوة ! أأنهض إلى غيرها ؟ هذا مستحيل . إن هذا الجو الشعري الجميل الذى يكتنف هذه القهوة هو في ذاته متعة دونها كل متعة . وطال جلوسى . وطالت مشاهدتى ، ومر الوقت سريعاً دون أن أشعر به ، وقام أناس ، وقعد أناس ، وأنا فى مكانى لا يشعر بى أحد . ولا أطلب شيئاً إلى

— ٤٥ —

أحد . لقد خجلت أن أسترعى التفات الساقيات الثلاث ما دامت
أنظارهن لا تريد أن تقع على مثلى ! وجعلت أسائل نفسي في نيرة
مريرة ، وروح كسيرة :

— ماذا يمنعني من أن أعيش كما يعيش هؤلاء الأحياء ؟ ما
أحسبني قد بلغت سن اليأس . وأنا الآن بالمصيف في شهر راحة ،
ما يمنعني من حلق ذقني كل صباح وترتيب شعري وتعريضه
للشمس والهواء . وارتداء مثل هذا السروال الأبيض الجميل
والقميص ذي السواعد العارية ؟؟ . لم أتلق جواباً عن سؤالى .
ولكن نظرة منى وقعت على صديقي « ابن عبدربه » الموضوع إلى
جانبي أدركت معها في الحال من المسئول عن كل ما صرت إليه !
نعم ، والأسفاه ، نعم . ووددت لو أنقض عليه فأقطعه تقطيعاً
وأمزقه تمزيقاً . ولكنى اكتفيت بحمله بين يدي في سخط
شديد . كمن يحمل كتابه الذي سطرت فيه لعنته وقدره المحتوم .
وعند ذلك حانت من الفتاة التفاتة إلى . وفطنت إلى
وجودى ، فأسرعت إلى تقول في ابتسام واعتذار :
— نسيتك يا سيدى .

— ٤٦ —

فأجبتها في ابتسام وتسامح :

— لا بأس . إنك على كل حال لم تنسى شيئاً ذا خطر .
وأحضرت إلى ما طلبت . ولم نتبادل كلاماً أكثر من ذلك .
ولكنى سعدت به . فنحن معشر الأدباء المساكين نرضى بالقليل .
ويكفى لإسعادنا وإلهامنا أتفه الأشياء .

* * *

كثير اختلافي إلى هذه القهوة . وكنت في كل مرة أرى عين
الأشخاص يلعبون عين الأدوار .

فالطالب في لباس « التنيس » ينادى « فرانسواز » في كل
لحظة ، ولا يشبع من الحديث معها ، ولا يرضى بطلب مشروب
بعد مشروب . استبقاء للساقية الجميلة إلى جواره . ولقد سمعته
ذات مرة وقد انفلتت من فمه هذه الكلمة :

— أوه ! لقد خربت وأفلس . وأضعت كل نقودي في هذه

القهوة !

ويلبث في سروره وضحكته وهذره ساعة ثم يمضي إلى ملعبه ،
مطوحاً « بمضربه » في الهواء فرحاً سعيداً .

— ٤٧ —

ويأتى الزوج الشاب ، وقد ترك زوجته فى الفندق وحيدة متدمرة تعسة مرتابة ، فينادى : « فرانسواز » ويطلب السعادة هو أيضاً ساعة فى عينيها الباسمتين غير مبال بخاطر فقد زوجته فى هذا السبيل .

تأملت كل هذا لحظة . ثم قلت لنفسى :

— هذان شابان جميلان . ومع ذلك فقد أضاعا شيئاً فى سبيل لحظة هناء إلى جوار هذه الفتاة . ماذا أعطى أنا من أجل لحظة تحدثنى فيها هذه الفتاة ؟ نعم ، هنا كل سعادتى ومطعمى : أن أسترعى اهتمامها لحظة وأن تقبل على تحدثنى حديث المشغوف بمحدثتى !

لكن .. هل هذا ممكن الحدوث وقد ابتليت بصحبة هذا الزميل المنحوس ؟ وانكبت على ورق الذى كنت قد نشرته ، وفتحت صدر ابن عبد ربه أمامى ووضعت فيه همى . وكأن القدر شاء مداعبتى أو أراد متعمداً أن يكشف لى قليلاً عن جوهر نفسى المحجوب عن عينى ، فأحدث المعجزة . وإذا الفتاة تدنو منى مبتسمة متعجبة وتقف لحظة ترمى سطور « ابن عبد ربه » وهى

— ٤٨ —

صامتة ، وفطنت إلى قربها ، فاضطرب قلبي ورفعت رأسي .

فابتدرتني قائلة في همس :

— أهذه كتابة صينية ؟!

فضحكت وقلت :

— بل عربية .

— ما أعجبها ! أتستطيع أن تقرأ هذا « النيش » في سهولة ؟

— بالطبع . وأكتبه أيضا .

— وتكتبه ؟

— نعم . انظري ..

ومضيت أكتب أمامها ، وهي دهشة مسرورة . وجعلت تستفسرنى كثيراً من معانى الكتاب . وقاطعها النداء من كل جانب ، فكانت تذهب لتلبى ثم تعود إلى تحادثنى مغتبطة ، وقد تطرق الحديث إلى مواضيع كثيرة . وقد أدركت من حديثى أن الكتابة صناعتى ، فأقبلت تعرض على ألوانا من حياتها تصلح قصصا . وبدأ على السرور أول الأمر . وبدأت أحترم ابن عبد ربه . فبفضله تم كل هذا ، ولكن ما كدت أتردد على القهوة مرة أخرى وتقبل

— ٤٩ —

علّى الفتاة تخادثنى ذلك الحديث الطويل فى مختلف الشئون ، حتى أحسست أن كل شىء قد تغير فى نفسى ؛ فالأشجار ليست الأشجار ، والجنة ليست الجنة ، ووجهها لم يعد فيه السحر القديم ، والجو الشعرى قد ارتفع عن القهوة . ذهب السحر ومهتكت أستار الأسرار . وما أنا والفتاة الآن إلا صديقان ثرثاران !

وشعرت عندئذ أن لا شىء عاد يربطنى بالقهوة ووددت لو أتركها إلى غيرها حتى أفرغ للعمل ، وأتم الفصول الأولى التى بدأتها مدفوعاً بتلك القوة الهائلة من لحظة سعادة خفيفة مرت . عند ذاك فهمت أن السعادة التى تلزم لنا نحن الفنانين ؛ لنقوم بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار !! مقدار صغير ثمين مثل « الراديو » فإذا انغمرنا فى حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلب فى نظرنا ماء قراح لا فعل له ولا أثر . وتأبطت « ابن عبد ربه » أخيراً ، وانصرفت به وقد ... انتصر !

(عهد الشيطان)

فى حانة الحياة

ساقون ثلاثة في « حانة الدنيا » إذا ناديتهم أقبلوا بالكؤوس
وهم يرقصون ، وفي عيونهم وشفاههم بسمات خفية ساخرة لا
ترتاح لها نفس ... أول « جرسون » من هؤلاء طفل ؛ وهو أبداً
طفل وعمره خمس سنين ... ويدعونه « الحب » ؛ والثاني رجل
وهو أبداً رجل وعمره أبداً أربعون سنة ... ويسمونه
« الشيطان » ، وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » والموت هو
« البارمان » لهذا الحان . وهو الوحيد من بين الثلاثة الذي لم أفكر
 يوماً في الدنو منه ؛ وقد زهدت من أجله في الشرب على
« البار » ! .. منظره لا يعجبني وحسبي منه وقفته الوقحة
و« فوطته » القذرة التي بها ألف خرق وضحكته التي كسعال
المسلولين وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير إدمانه على التدخين
والمغيبات . إنه « يقرفنى » ومحال أن أتناول شيئاً من يده طوعاً

— ٥٤ —

واختياراً ...

أما « الشيطان » فيعجبني بطلاقة زلفاه وذكائه . ولولا علمي أنه محكوم عليه غيايا ... وأنه من أرباب السوابق في جرائم النصب والاحتيال ... لركنا إليه ... أنا وكافة « الزبائن » ...
أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل ! إنه يأسرني بلطفه ورقته .. أجل إنه الساقى الوحيد الذى أتناول من يده كل شيء ... وبلا تحفظ . غير مبال إن كان ما يعطيني سماً أو « شمبانيا » ...

ناديته في الربيع الماضى فأقبل يحمل إلى الكأس ... ووقف ينظر إلى برقة ساحرة ويتسم إلى بابتسامة خلافة تحوى أشياء لم أكن أدركها في ذلك الحين :

— ماذا تريد ! ... (البقشيش) ؟ ...

— كلا .. أريد ألا تطلب إلى شيئاً بعد ذلك ... إياك أن تطلب قليلا من الثلج ... إن طلبت قليلا من الثلج فلن آتى لك بطلبك ...

— ٥٥ —

— اطمئن ... لن أطلب إليك شيئاً .. أبداً ... لا (تلج)
ولا (صودا) ...
وأقبلت على الكأس ... لكنه استوقفني أيضاً . وغافلني وحمل
الكأس وجرى قليلاً . ثم ضحك ضحكة صبيانية وقال في نبرة
ملائكية :
— سأعذبك ...

غير أني لم أسمع ولم أر ولم أدرك إلا شيئاً واحداً : إنه حمل
الكأس وابتعد . فارتجفت وصحت مدفوعاً بالرغبة والضمناً ...
— هات الكأس يا جرسون ...
فاقترب به من شفتي ... وقال بنفس الصوت الموسيقى
العذب :

— سأعذبك !
— هات الكأس يا جرسون !!
— سوف تلعنني ...
— أنا؟؟!
— سوف تمقتني ...

— ٥٦ —

— أنا عبدك ...
— سأعذبك ...
— هات الكأس ...
— خذ !

ومضى عام :
— يا جرسون . يا جرسون !
— ماذا تريد ؟
— الثلج .. فى الحال ... الثلج !
— لقد أنذرتك .
— أرجو منك .. قطعة واحدة من الثلج !
— قد أنذرتك .
— قطعة ... ولك ما تريد ..
— هيهات . هيهات !
— لا تبعد ؟ ... لا تنزأى . لن تتركنى قبل إحضار الثلج .
— هيهات . هيهات !

— ٥٧ —

— لقد خدعتنى ... ما كنت أظن طفلاً بريئاً جميلاً يجرو على
هذه الجريمة : يقدم إلى بدل ماء الكروم ماء النار !
— الكروم والنار ... يا لك من غر ساذج ! ... الخمر والنار
هما عنصرا حياتى . وهما لون خدودى ولون شراى !
— قطعة من الثلج ... ولك ما شئت !
— محال ... !
— رحماك ! .
— لو كنت عاقلاً لأدركت أن الثلج ليس فى عهدى .
— لماذا ؟؟ ... لماذا ؟؟ ...
— سل صاحب الحان ...
— أنقذنى ... لعنة الله عليك .
— الثلج لا يمكن أن يكون فى عهدى .
— آه يا ملعون !! وما العمل ؟
— عليك بجرسون آخر ؟؟
— جرسون آخر ... من ؟؟ من ؟؟
فجرى « الحب » إلى « الشيطان » وأسر إليه كلاماً ثم أشار

— ٥٨ —

بيده إلتى أنا « الزبون » المسكين ، وإذا « الشيطان » قد أقبل
نحوى :

— أنا .. هو ذا ... ما طلبك ؟ ... أنا القدير على تنفيذ رغبتك
... مرنى أطع أيها السيد النبيل !

— الشيطان !!

— خادمك . !

— كلا مستحيل ! أنت من أرباب السوابق .

— مظلوم ! ... وربك لم يثبت ضدى شىء ... لا تصدق
وشايات الناس . وربك إنى متهم زوراً وبهتاناً .

— ما الدليل على براءتك ؟

— هاك ... « رخصتى » ... بيضاء كقلب الجنين !!

— أليست ... مزورة ... ؟؟؟ على كل حال أنا فى حاجة إليك

الآن ! إنى فى حاجة شديدة إليك .. أسامع ؟

— محسوبك ...

— ... الحب ... هزأ بى ... انتقم لى ...

— آسف ! الحب زميلى وليس لى عليه سلطان .

— ٥٩ —

- ما العمل إذن ؟ ...
- دع الانتقام ... وفكر في الدواء ...
- الدواء ... الثلج ... قطعة من الثلج ... إذن !!
- الثلج ليس بالدواء ... الدواء هو ...
- هو !! هو ماذا ؟ تكلم ؟
- هو الداء ... وداوها بالتي كانت هي الداء ...
- ماذا تعنى ... ؟
- اطلب من « الحب » كأساً أخرى ... !
- قل سما آخر ، ناراً أخرى سائلة في كأس صافية ! ... لا ،
- أيها النصاب لقد خدعت مرة ...
- ومن أدراك ؟ . ربما في هذه المرة . ؟
- اخرس . يا منافق ... دوائى الثلج ... وأنا أدري الناس
- بدوائى ... أعطني قطعة من الثلج ... أسرع بالثلج ...
- محال ..
- أنت أيضاً ..
- الثلج ليس في عهدي ..

— ٦٠ —

— كيف ذلك ... كيف ذلك ؟ ..

— سل صاحب الحان ! ..

— وما العمل ؟ ... ارحمني ! ...

— أدلك على « جرسون » آخر ... وأوصيه بك خيراً ...

فلطالما أوصيته عند الزوم بزبائننا الكرام ...

وجرى « الشيطان » مهرولا إلى « الموت » وأسر إليه

كلاماً ، ثم أشار إليّ أنا « الزبون » فتقدم « الموت » في بطء وهو
يتسسم ساخراً :

— من ذا الذى طلبنى . ؟

— الموت !! ... آه ... لا ، لا ... لا ... أبداً ...

— عجباً لكم ... يا معشر الزبائن ... كلكم متشابهون ...

تطلبون ثم تنكرون ! ألم تطلبنى أيها « الزبون » ؟؟ ها ... حا ...
حا ... حا ...

— لا تسعل فى وجهى ... اغرب عنى ...

— عجباً لك ! ... حا ... حا ... سعالى يخيفك ... أتحسبنى

مسلولا ... لا ... أخطأت ! هذا من الأفيون نعم .. ها.. حا...

— ٦١ —

حا ... ألا تحب، تحاطى الأفينون ؟

— بالله ... ابتعد ... أسنانك الصفراء ... ابتعد ... ابتعد ...

— والثلج .. ألا تطلب الثلج ... هو فى عهدتى ألا تريد ؟؟ ..

— فى عهدتك ؟؟ ...

— فى عهدتى دائما من يوم (نزولى الخدمة) ، بهذه

الحانة ...

— كلا لا تقربنى ... قلت لك ... لا تقربنى ... أستودعك

الله . !

— إلى أين ؟! حا ..

— ابتعد عنى ... أنت لا تطاق ... رائحتك كريهة ...

— والثلج ... حا ... حا ... ألا تطلب ثلجا ... أبيض ...

تعال لا تخف ... تعال .. ثلجا أبيض مثل الكفن !!

— النجدة ... النجدة ... يا جرسون « حب » ، يا جرسون

« شيطان » ... يا صاحب الحان ... أنقذونى من هذا الجرسون

القطيع ... كل شئ يطاق إلا هذا الجرسون البارد القطيع ...

حقوقی علی نفسی

في ذات صباح دخل على حارس بابي وقدم إلى خطابا قال إن صاحبه ينتظر الإذن « بالمثل » . وفضضت الغلاف وقرأت الخطاب فإذا هو معجب متحمس قد ذهب الإعجاب برأسه فجاء من بلده وتحمل نفقات السفر كي يظفر بخمس دقائق يري فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب . أو ذلك المخلوق العجيب الذي تتساقط من فمه درر الفن والأدب ، فتملأ أحواضا حوله يسبح فيها ببط وأوز من الفضة والماس وتنبت فيها أزهار من النور والبلور . إلى آخر هذا الخيال الذي لمحت أثره بين السطور . وكان عندي وقتئذ أديب معروف اطلع على الخطاب وقال : هذا يذكرني بأحد الموسيقيين في القرن الماضي . مشى من بلده على قدميه ليري « ريتشارد فاغنر » فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الأستاذ قائما خلف زجاج نافذته ، وقفل إلى بلده (عهد الشيطان)

— ٦٦ —

غانما باسمما .

فقلت لصديقي :

— لا محل هنا للمقارنة . فأنا لست « ريتشارد فاجنز »
وصاحب الخطاب لن يقنع مني فيما يظهر بشبح مار خلف نافذة .
لا تنس أنه دفع نفقات السفر ليرى مناظر قد صورها خياله منذ
أيام وشهور ، وليعيش تلك الدقائق الخمس في جو عبق بأحلام
وأوهام ساورته في ليال طوال وهو يقرأ ذلك « الهراء » الذي ملأنا
به كتبنا ذات ورق صقيل وطبع أنيق . أى خيبة أمل ستصدم نفس
هذا المسكين إذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب .
وترددت قليلا . ولحظ صاحبي ترددى فقال :

— إيدن له على كل حال .

فأذنت . وليس في مقدوري أن أفعل غير ذلك . فإن رفض .
المقابلة في مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب . ودخل الزائر . فإذا
شاب يتقدم في حياء واضطراب . سلم في احترام ، وجلس حيث
أشرت إليه . ولبت صامتا مطرقا ينتظر مني أن أبدأ الحديث . ولم
أجد أنا ما أقول له . وطال صمتنا . ورأى صديقي الأديب أن

— ٦٧ —

الموقف قد فتر وبرد إلى حد أن جعل الشاب فوق خجله . فافتح
الكلام في لباقة قائلا للشاب :

— أنت قرأت للأستاذ طبعا ..

فاندفع الشاب يقول في قوة وتحمس :

— كل شيء . كل شيء من « أهل الكهف » الخالدة إلى آخر
مقال ظهر في الصحف للأستاذ .

فلم أنظر إلى الزائر والتفت إلى صديقي الأديب وقلت :

— ألم تدركها الوفاة بعد « أهل الكهف الخالدة » ؟ ... إن
هذه « الخالدة » جديرة أن تموت « حرقا » كما تموت الساحرات
الكاذبات .

فاحمر وجه الشاب وأراد أن يقول شيئا . لكنني مضيت في

كلامي :

— إني أرجو ممن يسبق مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة
أن يقرأها بعد عشرة أعوام . فإن استطاعت أن تحتفظ بسحرها
عشرة أعوام فقط حق لك أن تعجب وأن تغتبط .

فلم يطلق الشاب صبرا وصاح بي :

— ٦٨ —

— لا تقل ذلك ... لا تقل ذلك أنت ولا شك لم تقرأ ..
ولم يتم . فقد قاطعه صاحبي الأديب بقهقهة عالية وهو ينظر
إلى :

— أسمعت ؟ إنك لم تقرأها ... وإنك لتحكم على شيء ليس
لك به علم ..

وخجل الفتى الزائر قليلا وتتم باعتذار خافت وقال :
— إني قرأتها كثيراً . لا أذكر كم من المرات . فإذا لم تكن هذه
القصة خالدة فما هي القصة الخالدة ؟

— إنها « خالدة » إذا هبطنا بسعر « الخلود » إلى خمسة
أعوام !

فاحتج الشاب وحرك يده على نحو عنيف فلم ألتفت إليه
وانجهت شطر صديقي الأديب وقلت :

— إني لن أنسى يوم شاهدت هذه « القصة » تمثل للمرة الأولى .
لقد خرجت من إطارها الساحر . هذا الطبع الأنيق والورق
الفاخر . فإذا هي شيء هزيل . لا يكاد يقف على قدميه . وإذا
سحرها الوهمي الكاذب قد طار عنها كما يطير الريش الملون عن

— ٦٩ —

الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الأزرق
والعصب الضئيل . هذه القصة التى لم تثبت « للتمثيل » أتستطيع
أن تثبت « للزمن » ؟ .

فتململ الشاب ونظر إلى صاحبيه الأديب نظرة المستنجد
وقال له :

— إني لم آت اليوم لأسمع هذا الكلام من الأستاذ .

فأجابه صاحبيه باسمياً :

— إن الأستاذ أدرى بعمله منا .

فقاطعه الفتى قائلاً :

— لا ... لا ... أبداً .

فنظر إليه صديقى دهشاً :

— ماذا تعنى ؟

فصاح الشاب فى حماسة :

— إن أعمال الأستاذ خالدة جميعاً .

فلم أستطع كتمان ضحكى وقلت من فورى :

— أقسم أن الأستاذ الذى تتحدثون عنه لم يكتب سطرأ

— ٧٠ —

خالدًا .

فنهض الشاب على قدميه منفعلًا وقال بصوت متهدج :
— إني لا أسمع لك .. إني لا أسمع ..
فأسرع صاحبي الأديب وهمس في أذني :
— الزم الصمت . إني ألمح الشر في عينيه . وليس بمستبعد أن
يهجم عليك ويشبعك ضربًا .
فابتسمت وقلت للشاب في هدوء ورفق :
— ستتفق على كل حال ذات يوم . وربما في يوم قريب .
وسترى بعينيك أني أنا الذى كنت على حق .
فهدأ الفتى قليلاً ثم نظر إليّ وقال في نبرة الأسف :
— لماذا تريد أن تهدم عملك ؟
— لأنه لا يساوى الآن شيئاً . لقد قام بمهمته وانتهى الأمر . إن
الفن طويل والعمر قصير . وإن هذا الهراء الذى نكتبه ليس إلا
محطات صغيرة نجتازها أثناء السفر فى طريق الفن ، لا ينبغي أن
نقف عندها ولا أن نرجع البصر إليها . إن ما يهمنى الآن هو المحطة
التي بلغت اليوم والمحطة التي أريد أن أبلغها غداً . إني فى كل محطة

— ٧١ —

يخيل إلى أنى فى مبدأ الطريق .

— إنه لتواضع .

— لا . إنه ليس كذلك . ينبغي أن تكون معى فى هذا السفر الطويل حتى تدرك أن « أهل الكهف » شىء قد مات ودفن منذ أعوام .

— إنها لم تمت .

— الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه .

— معذرة يا أستاذ . إني لن أصدق أن « پريسكا » ميتة الآن . مهما تقل ومهما تفعل . إني أسمع كلامها وأعيش معها . وأكاد أراها الآن . إن ملامحها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل ... كل هذا حى فى رأسى وقلبى . كل هذا مصور فى مخيلتى تصويراً لا تمحوه كلماتك التى قلتها اليوم ولا أضعافها . إني كنت قد جئت لأحدثك حديثاً طويلاً عن « پريسكا » وأستزيد من خبرها ولكن ... أرجو أن تأذن لى الآن فى الانصراف .

ومد لى يده فجأة وودعنى فى صمت وذهب سريعاً وأنا أنظر

— ٧٢ —

إليه حتى اختفى وحال بينى وبينه الباب . وأطرقت لحظة ثم رفعت
رأسى ونظرت إلى صاحبى الأديب فإذا هو كذلك مطرق مفكر .
وأخيراً التفت إلى وقال :

— ما كان ينبغي لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب
المسكين .

— أو كان ينبغي لى أن أتركه فى وهمه مخدوعاً فى خلود كاذب .
— ليس من حقتك أن تصدر على نفسك أحكاماً أمام الناس .
إنك ما دمت قد استطعت أن تخلق للناس أوهاماً جميلة وأحلاماً
حلوة يعيشون فى جوها فإن من الإثم أن تخرجهم منها بكلمة . ومع
ذلك فكن على ثقة أنهم لن يصدقوا كلامك وإن حرصهم على هذه
الأوهام التى ألفوها لأشد من حرصهم عليك أنت وعلى حقيقتك
التي تزعمها . أترى لو بعث نبي من الأنبياء اليوم وجاء يهدم دينه
الذى أتى به قديماً ، ماذا يكون شأنه . أيصدقه الناس بسهولة أم
تراهم يرمونه بالحجارة ويرمونه بالكذب والجنون ؟؟ إن تمسك
الناس بالوهم الذى اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

— ٧٣ —

— يا للعجب . أليس لى الحق إذن أن أهدم نفسى . إنه الجنون
أن أتصور أن ليس فى استطاعتى أن أهدم نفسى .
— نعم وإنها لنعمة حرّمها المؤلف فيما حرم من أشياء . إن
حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف !

مع الأميرة الغضبي !

الأميرة الغضبي هي « يريسكا » بطلة قصتي « أهل
الكهف » . وهي مثلي تحب الكتب ، هذه الحسناء النظرة
كالزهرة . وكانت تعيش ربيعها الياسم مع مؤديها « غالياس » ،
هذا الشيخ الغاني ذو اللحية البيضاء . إلى أن وضع القدر أمامها :
الفتى الجميل « مشلينا » . فما كاد يفتح قلب هذه الزهرة
للحب ، حتى رأت « القدر » قد حال بينها وبين حبيبها ، وسطر
في اللوح أمر موته . وقدر « يريسكا » هو « أنا » . ولا فخر . أنا
الذي في يدي سعادتها وشقاؤها ، أسطرهما بكلمة من قلمي ! لقد
تذكرت هذا ، ذات ليلة ، فحدثني نفسي أن أهبط إلى عالم
مخلوقاتي ، فأرى الراضى منهم والساخط ، وأطوف بمشاعرهم
نحوي ونحو الأشياء كما كان يفعل آلهة الأساطير !
ذهبت إلى الأميرة يريسكا . فوجدتها تتألق في حسنها

— ٧٨ —

المعهود ، ولو لكانه حسن عليه غيمة حزن . فما إن رأيتني وعرفتني ،
حتى شئت إلى مصالحة :

— إني أبغضك ! .. من أعلقاق قلبي .

— أستغفر الله ! لماذا يا سيدتي ؟ ما جنايتي !

— وأحتقرك كما أحتقر غاليلاس .

— لا تخفي يا سيدتي قبل كل شيء أن ليست لي لحية غاليلاس !

— قل لي أنت قبل كل شيء : ماذا عليك لو أنك أبقيت لي

مشلينيا ؟ .. لو أن قلحك تمهل لحظة صغيرة ولم يقصف تلك

الحياة قبل أن يحضر غاليلاس وعاء اللبن ... ! ماذا كسبت أنت من

موت مشلينيا قبل الأوان ؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية

لإنقاذ الهتي ... لكنك ضمنت بها أيها القاسي الظلوم ! .

— لست قاسياً يا سيدتي ولا ظلوماً . ولو كنت أملك أمر بقاء

مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر .

— لو كنت تملك ؟ ومن غيرك يملك ؟

— لا تحمليني يا سيدتي هذه التبعة !

— جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا ليتنصل !!

— ٧٩ —

— آه ! . ما أظلم الإنسان ! وماء أحوج الخالقين إلى الرحمة
والرثاء في هذا الوجود !

— نحن الظالمون وهم المظلومون ! شيء بديع !

— إنكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهم براء من كل
صفة من هذه الصفات . فلا ظلم ولا عدل ، ولا قسوة ولا
حنان ، ولا غضب ولا رضى ، تلك عواطف لا يعرفونها ولا
يشعرون بها . ولو أصغى إله لصوت آدمى لانشغل الكون في طرفة
عين . كما تنحل قصة أهل الكهف لو أنى أصغيت إلى شخص واحد
من أشخاصها ! فأنت تريد أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة . ولا
تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة
وتقلب مصير الأشخاص وتلقى عناصر الفوضى في العمل كله .
كلا يا سيدتى . إنى لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه . ولم أحب
ولم أكره . ولم أظلم ولم أعدل . إن الخالق بلا يمكن أن يخضع لغير
قانون واحد : « التناسق » .

— هذا كلام تبرر به قسوتك .

— أنت يا سيدتى بلا تعزفين ما مهنة الخالق ! ثقنى أن كلمة

— ٨٠ —

« قسوة » لا معنى لها في تلك المهنة .

— أنت كائن لا يمكن أن يفهمنى ولا يمكن أن يفهم الحب .

— لا أفهمك ، هذا صحيح . أما أنى لا أفهم الحب فهذا غير

صحيح .

— هل أنت تفهم الحب ؟

— قليلا .

— هل أحببت في حياتك ... ؟

— أيتها الاميرة ! لا أسمع لك بالكلام في شئوى الخاصة .

— معذرة ! إنما أردت أن أعرف كيف فهمك للحب ؟

— ماذا تريد أن تعرفى ؟ أحب الخالق وهو روح التناسق ؟

أم حب المخلوق ... ؟

— بل حب المخلوق ... حب القلب ... الحب ما أريد . آه ...

صدقت ما دمت أنت خالقا وأنا مخلوقتك فإن بيننا تلك الهوة ...

فأنت لا تنظر إللى بعين خاصة . ولا تعرفنى معرفة خاصة . ولا

تتصل بى اتصالا مباشراً . إنما تنظر إللى كعنصر من عناصر الكل

المتسق . تنظر إللى بعين ذلك القانون الذى تحكى عنه ، وينبغى أن

— ٨١ —

تكون مخلوقاً مثلى وعنصراً أو جزءاً مثلى حتى يكون بيننا ذلك
الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص . فهبك كذلك وهبنى
أحييتك فهل تحبنى ؟

— يا لك من ذكية ماهرة !

— أجب . إذا أحييتك ... !

— ومشيلينيا ؟

— دعنا الآن من مشيلينيا .

— إذا أحييتنى . ؟ أنا ؟

— نعم ، أنت .

— إني أخشى هذا الحب .

— لماذا ؟

— لأنك لن تحبينى .

— من أين لك العلم ؟

— هل رأيتنى ؟ إني لا أشبه مشيلينيا فى شيء ، فليست لى فتوته

ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعه ولا شفتاه ...

— ولا قلبه ؟

(عهد الشيطان)

— ٨٢ —

— أتردد قبل أن أجيب ؛ قد يكون لى قلبه ، لكن ثقى أنى لو
شقيت فى الحب فأنى لا أذهب إلى الكهف ولا أموت جوعاً . أولاً
... ليس عندى كهف أموت فيه . وإن وجدنا الكهف ، فلسنا
واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يوماً
واحداً...

— إذن ليس لك حتى قلبه !

— نعم وأسفاه !

— إذن ما يصنع مثلك لو شقى فى الحب ؟

— يذهب إلى كهف من كهوف النبيذ فى مونترتر ويؤلف
قصصاً تمثيلية .

— مرحى ! . مرحى ... !

— لا تغضبى ابنتها العزيزة يريسكا .

— أهذا فهمك للحب ؟

— ماذا تريدن ؟ إنا لسنا قديسين !

— نعم ، لستم سوى خالقين ! آه ... كنت أحسبكم خيراً من

هذا !

— ٨٣ —

— كذلك قال غالياس يوماً فيما أذكر عن القديسين الثلاثة إذ خالطهم وحادثهم . ألا تذكرين ؟
— كنت أظنك على الأقل خيراً من غالياس المسكين فهما للحب !!

— يشق على أن يحيب ظنك في يا عزيزتي !
— عزيزتك ! كلا . لست أسمح لك ! إنك تخاطبني كما لو كنت تعرفني من قبل ، أو كما لو كنت لي بعلا !!
— حقيقة أيتها الأميرة ليس لي هذا الشرف !
— تستطيع أن تنصرف يا هذا !
— أنصرف إلى أين أيتها الأميرة ... ؟
— أتسألني ؟ إلى حيث كنت ... إلى سمائك ...
— أين هي هذه السماء ؟ في قهوة « سيرانو » ؟ أو في قهوة « جروني » ؟ ما أكثر أوهامكم أيتها المخلوقات !
— نعم ما أكثر أوهامنا ... وتخيلاتنا .. وخيبة آمالنا !
— ذلك أنكم تريدون أن تخضعوا كل شيء لخيالكم أنتم .
— صدقت ! إننا نتمثل القديسين والآلهة كما تصورهم لنا عقولنا

— ٨٤ —

— ثقي أن لو كشف المجهول يوماً لأعين البشر لصاحوا كلهم
بكلمتك التي لفظتها الساعة : « كنا محسبه خيراً من هذا ... ! »
— ربما ...

— ذلك أنهم سيرون المجهول شيئاً لا علاقة له بعقلهم ، ولا
بخيالهم ، ولا بمنطقهم ، ولا بعواطفهم ، ولا ببشريتهم .
— إنا مخلوقات . ماذا تريد من مخلوقات ؟ إنا لا نستطيع أن نخرج
من أنفسنا لفهم ونرى شيئاً غير أنفسنا .
— ومع ذلك فإن لهذه المخلوقات كنزاً لا يوجد عند الآلهة .
— القلب
— نعم .

— إني أؤمن بما تقول ، فهذا أنت ذا خالق من نوع تافه ... وليس
لك القلب الذي لمشينا ... !

— أعترف أني أقل شأنًا من حيبيك .
— ومع ذلك فقد اجترأت يدك على إطفاء حياته الجميلة .
— عدنا إلى الاتهام .
— إني أبغضك .. أمقتك ... أبغضك من أعماق قلبي ...
— سيحان الله ! أقسم أن لا فائدة من مناقشة امرأة تحب .

أمام حوض المرمر !

في ليلة من ليالى وحدتى الطويلة ، تاقت نفسى إلى أنيس .
فذكرت الملكة « شهرزاد » . وهى أيضاً من مخلوقاتى الجميلات .
فقلت : لا يؤنسنى الليلة غيرها . فهبطت إلى قصرها . كما هبطت
إلى الأميرة « بريسكا » من قبل . نعم .. ! وهل يؤنس مثلى إلا
الملكات والأميرات ! إن عالمى الزاخر بالآلىء والحلى والتيجان هو
دائماً فى خدمتى ! هذا كل عزاء مثلى من « الخالقين » المتدثرين فى
سحب « عزلتهم » الباردة !

* * *

ذهبت إلى شهرزاد ، فوجدتها متكئة على الوسائد تنظر باسمة
فى حوض من المرمر ، قد انعكست أشعة عينها الذهبيتين على
مائه ، فاتخذت صفحته الهادئة لوناً غريباً ... وجلس بين يديها
الوزير الجميل « قمر » فى إطراره وحيائه ونفسه الزاخرة بألوان
العواطف الجميلة المكتومة . وكان بينهما هذا الحديث :

— ٨٨ —

شهرزاد : (فى مكر) أراك يا قمر تسرف فى إطرائى وتبخس قدر
صديقك شهريار .

الوزير : لم أبخس قدره .

شهرزاد : (فى مكر) يخيل إلتى أنك نسيت ما بينكما من ود
عجيب .

الوزير : (فى حدة) لم أنس شيئاً .

شهرزاد : (فى خبث) بلى !

الوزير : (فى حدة عمياء) إنى لم أنس شيئاً . إنما أئين لك لماذا
أنت تحبينه أسمى الحب ، فلا تزعمى لى غير هذا مرة
أخرى . إنى لست أخدع . لست أخدع ، لست
أخدع !

شهرزاد : (هادئة) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير : (يثوب إلى رشده) مولاتى مغفرة . إنى

شهرزاد : إنك أحياناً لاتملك نفسك .

الوزير : إنى ... أردت أن أقول إنك غير ته ، وإنه انقلب إنسانا
جديداً منذ عرفك .

— ٨٩ —

- شهرزاد : إنه لم يعرفنى .
- (وهنا يسمعان طرقا شديداً فقد طرقت أنا
عليهما الباب)
- الوزير : (يرهف السمع) هذا هو .
- شهرزاد : إن شهريار يحمل دائماً مفتاحه ولا يدخل القصر
إلا من سردابه .
- الوزير : من الطارق إذن ؟
- شهرزاد : اذهب وجئنى بالخبر .
- (الوزير يخرج مسرعاً)
- شهرزاد : (كالتخاطبة لنفسها) مسكين أنت يا قمر !
- (الوزير يعود على عجل)
- قمر : مولائى ! أتدريين من الطارق ؟ رجل عجيب
الزى ، يقول إنه المؤلف ، وياتمس المثل بين
يديك .
- شهرزاد : (فى عجب) المؤلف ؟ أى مؤلف !
- قمر : لم أفهم مراده . إنما هذا ما قاله لى .

— ٩٠ —

شهرزاد : أدخله لتبين أمره .

قمر : أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟ .

شهرزاد : وماذا يضير . إنك معى .

قمر : نعم سأليث معك .

(يخرج قمر فى الحال)

شهرزاد : (كاخاطبة لنفسها) المؤلف ؟ : أترأه أحد

السحرة قد أرسل فى طلبه شهریار ؟

* * *

وقادنى قمر إلى شهرزاد ، فدخلت أتأمل المكان وأنظر إلى
عجائب القصر . ورأتنى شهرزاد وتأملت زى قليلا ، ولكن
حسنها وهبتها لهما عين السحر فى نفوس الخالقين والمخلوقين
فوقفت أقول مأخوذاً :

— مولاتى ...

— ماذا بك ؟.

— أنا بين يدى شهرزاد ؟.

فهمس فى أذنى الوزير الجميل :

— ٩١ —

— نعم أنت في حضرة الملكة العظيمة .

فقلت كالمخاطب لنفسى :

— نعم ، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها .

ورأت الملكة الجميلة ما بى فقالت لى :

— بم تهمس كمن به مس ؟ .

— مغفرة أيتها الملكة ، إنى ...

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟ .

— هذا الجمال ...

فالتفتت شهرزاد إلى وزيرها قائلة :

— أرايت يا قمر ، إنك قد جئتنى آخر الليل بمعجب مفتون .

فنظر إلى قمر قائلاً فى شىء من الحدة :

— ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟

فقلت همساً :

— لست أدرى ...

ثم عدت إلى تأمل شهرزاد . فقالت :

— أرجو منك أن لا تطيل النظر إلى هكذا .

— ٩٢ —

فقلت :

— مولاتي ! لا أستطيع .

فقالت وهي تبحث بعينها الفاتنتين :

— أين الجلاد ؟

فقلت :

— نعم ، خير لك أن تأمرى بي فتطاح رأسى من أن تطلبى إلى

أن لا أعجب بك .

— أترانى حقاً جميلة ؟

— نعم .

— إن لى جسداً جميلاً ! أليس لى جسد جميل ؟

— ليس الجسد وحده .

— اقترب .

— كلا .

— لماذا ؟

فأشرت إلى حوض المرمر :

— هذا الحوض ..

— ٩٣ —

- أَيْخِيْلَ، هَذَا الْحَوْضُ ؟
- أَخْشَى أَنْ تَزِلَ قَدَمِي فَأَسْقُطَ وَأَنَا لَا أَحْسَنُ السَّيَاحَةَ .
- إِنَّهُ قَلِيلُ الْغُورِ .
- لَا شَيْءَ عِنْدَكَ قَلِيلُ الْغُورِ .
- فَتَفَرَسَتْ شَهْرزَادُ فِي وَجْهِهِ وَقَالَتْ :
- عَجَباً ! إِنَّكَ تَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُ شَهْرِيَارُ ! مَنْ أَنْتَ ؟
- خَادِمُكَ تَوْفِيقُ الْحَكِيمِ .
- أَتَعْنِي أَنَّكَ صَاحِبُ تَوْفِيقٍ أَمْ أَنَّكَ صَاحِبُ حِكْمَةٍ ؟
- لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ اسْمُ مِنَ الْأَسْمَاءِ .
- وَمَا صَنَاعَتُكَ ؟
- أَوْلَفُ الْقَصَصِ .
- مِثْلِي ؟
- لَمْ أَبْلُغْ شَأْوَكَ ، وَلَيْسَ لِي ذِكَاؤُكَ وَلَا خِيَالُكَ .
- إِنَّكَ تَسْرِفُ فِي إِطْرَائِي وَتَبْخُسُ قَدْرَ نَفْسِكَ .
- قَدْرَ نَفْسِي ؟ وَمَا أَدْرَاكَ بِهِ ؟ وَهَلْ عَرَفْتَ لِي قِصَصاً عَلَى الْأَقْلِ أَيْتَهَا الْمَلِكَةُ ؟

— ٩٤ —

— كلا . ماذا صنعت أنت من القصص ؟ .

— قصة « شهرزاد » .

فظهر العجب على وجه الملكة :

— أنا ؟

— نعم أنت .

— متى صنعتها ؟

— ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه .

— أصنعتها فى الماضى ؟

— بل فى المستقبل .

— فهمت . هذا الزى العجيب ..

— نعم . إني أهبط إليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه

لألقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين ، كما يهبط الطائر من

الشمال إلى الجنوب فى غابة متسعة الأرجاء .

— يا للعجب ! كلامك هذا يذكرني بشهر يار .

— أترين هذا ؟

— لكنك أهدأ نفساً منه .

— ٩٥ —

— نعم ، الآن .

ونظرت شهرزاد إلى ملياً :

— إني أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟

— لقد جمع بيننا دائماً .

— أين ؟ .

فأشرت إلى قلبي وقلت :

— هنا .

فقالت في عجب وهي تشير إلى قلبي :

— هنا ؟

— نعم . ومن هنا خرجت أنت إلى الوجود فما أنت إلا صنع

النار والنور الكائنين هنا .

وأشرت مرة أخرى إلى قلبي . فقالت باسمه :

— هذا جميل .

— أرايت من أى مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتى العزيزة !

وتلملم قمر ، فقال مشيراً إلى في عنف :

— من هذا الرجل ؟

— ٩٦ —

فقلت في الحال :

— صه أيها الوزير . فكر في شأنك أنت ، ودعني فيما أنا فيه .

فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد .

فقالت شهرزاد في ابتسامة عذبة :

— جئت من أجل ؟

— نعم .

— وماذا تريد مني ؟ .

— أريد أن أعيش إلى جانبك .

وهنا ثار غضب قمر فصاح بي :

— أيها الرجل ! من أنت أيها الرجل ؟

فقلت له هادئاً :

— أنا كائن أشقى منك حالا .

فقالت شهرزاد :

— لماذا ؟

— لأنني أشعر ببرد الوحدة يكتنفي في تلك السماء ذات

السحب .

— ٩٧ —

فقال باسمه :

— ويل للخالقين !

— صدقت ، أجل يا شهرزاد لو لم يعيش الخالق في مخلوقاته
لقتله برد الوحدة .

— تريد إذن أن تهبط إلى الأرض .

— لقد قلتها أنت مرة يا شهرزاد : لا شيء غير الأرض ؟

— أين شهریار يسمع منك ؟ وهو الذى هجر الأرض يريد
السماء ! .

— لا تخشى عليه من بأس . سوف يعود إليك .

— متى ؟

— يوم يعلم أن السماء فى الأرض .

— يا هذا ... أريد منك شيئاً ..

— ماذا ؟

— أمنحك قبلة . !

— تمنحني قبلة ؟

— نعم .

(عهد الشيطان)

— ٩٨ —

— وهبتها قمرأ .

فنظر قمر إلى شهرزاد مستكراً قولى وصاح :

— مولاتى !

فقلت له :

— خذها أيها الأبله . من ذا الذى يرفض قبلة من شهرزاد ؟

فلم يحتمل قمر الرقيق أكثر من ذلك فخرج سريعاً .

فقلت :

— هرب الأحمق .

وعندئذ نظرت إلى شهرزاد ملياً وقالت :

— عرفتك أخيراً .

— عرفتني ؟ من أنا ؟

— آأنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

— من هو ؟

— شهريار !

فقلت مضطرباً :

— لست أدري ... هذا سؤال لا ينبغي أن يوضع ولا ينبغي أن

— ٩٩ —

يلقى على .

فقلت :

— إذن ارتفع . فما أنت إلا شبح من الأشباح .

— شبح من !

— شبح شهر يار . !

— لا تقولى هذا . إنما هو الشبح وأنا الحقيقة .

فقلت :

— أمام الأبد هو الحقيقة التى ستبقى وهو خالقك وهو
مخلدك ، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مر الأيام . وإن
ذكر اسمك على الدهر فإنما يذكر خلف اسمه . إنك تزعم الآن أنك
صانعنا وخالقنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وإنما نحن فى الحقيقة
صانعوك وخالقوك فى الغد أمام الخلود ...

— ويل لى .

— ماذا بك ؟

— أنا عندك شبح ؟ تلك هى السخرية الكبرى ! فى وحدتى
ينخر فى نفسى الشك . فإذا هبطت بينكم أتمس اليقين ، علمت

— ١٠٠ —

أنى شبح لا حقيقة ، وأنى وليد صنعكم أنتم أمام الدهور .

فقلت :

— كل شيء يصنع كل شيء ..

— نعم .

— ليس هناك إلا حقيقة واحدة .

— ما هي ؟

— أننا جميعا لسنا حقيقة .

— وأنا معكم ؟

— وأنت معنا لا فرق بينك وبيننا .

فتأملت قولها لحظة ثم قلت :

— صدقت ! ولا أمل لي مع ذلك فى أن أعيش إلى جانبك ؟؟

فقلت :

— اليوم كلا .

— ومتى إذن ؟

فقلت :

— ١٠١ —

— في الغد ، يوم تصبح من مادتنا ، لو أن لنا اليوم مادة .
فأطرقت قائلاً :
— فهمت . وداعاً يا شهرزاد .
— إلى الملتقى !

بين الحلم والحقيقة

« أحدهما شبح الآخر »

— ١٠٥ —

« هو » : صانع تماثيل ، قد جلس أمام تمثال صنعه
لأميرة فرعونية .

« هي » : زوجته ، جميلة تشبه التمثال .

هو : (يرئو إلى التمثال)

نفريت ! ما أجملك ! عيناك في صمتهما العجيب تابوتان
لامعان ، يرقد في أحدهما الحب ، وفي الآخر ... الحب
هي : (لزوجهما الفنان)

ألن تكف عن مخاطبة هذا التمثال الصخري ؟

هو :

نفريت ليست من الصخر .

هي :

إنك جننت .

— ١٠٦ —

هو :

إني أحب .

هي :

تحب تمثالا من الصخر ؟

هو :

إنها ليست من الصخر ، أللصخر حرارة وأنفاس ؟

هي :

تلك حرارتك وأنفاسك

هو :

نفريت !. ألمس جسمك الحار فيرتجف جسمي الملهب .

هي :

إنما جسمك يلهب من الحمى .

هو :

ما أجملك يا نفريت ! رأسك ذو الشعر الأسود شمس من
الأبنوس . رأسك اللامع كرة ساحر تبهر بصرى وتثقل رأسى .
إننى أشعر الآن بدوار .

— ١٠٧ —

هى :

لا تطل النظر إلى هذا الصخر اللامع .

(ترده عن التمثال)

هو :

دعيني يا امرأة !

هى :

كلا . لن أدعك هذه المرة . لقد ضقت ذرعاً بهذا التمثال ... لا
تحدق فيه يبصرك ... إنك تحلم ... أقسم أنك فى حلم .

هو :

دعيني يا امرأة !

هى :

اصغ إلى لحظة ، أتوسل إليك أن تصغى إلى .

هو :

نفريت . ما أجملك يا نفريت ! . صوتك الرقيق فراش
جميل الألوان يطير فى لطف ورقة من جوف زنبقة
حمراء !

— ١٠٨ —

هي :

وصوتي أنا ، ألا تسمعه ؟

هو :

نفريت !

هي :

إنما أنا التي تحبك ... ألا تسمع صوتي أنا ؟ ألم يعد رقيقاً
كأجنحة فراش جميل الألوان ، وشعري ... ألم يعد شمساً من
الأبنوس . لم تنادي نفريت بما كنت تناديني به من قبل ؟

هو :

نفريت ! لن يُصنع مثلك بغير أن تفني عبقرية ألف إله . ولن
يخلق نظيرك إله دون أن يجن !

هي :

أيها المجنون ... لا سوى في الوجود ؟ ... انظر إلى أنا ... لم
تنعت نفريت بما كنت تنعتني به من صفات ؟

هو :

بي ظماً إليك يا نفريت !

— ١٠٩ —

هي :

وأنا ... أما بك ظمأ إلى ... لماذا لا تأخذ رأسي بين يديك كما
كنت تفعل ، لترشف من فمي عصير اللآلئ ؟

هو :

قبيلات نفريت .. غسل من نار ، بل خمر من عصير اللآلئ في
كأس من نار ...

هي :

ويحك ! تلك صفاتي ... أسمائي التي كنت تطلقها على أنا
وحدى ... أنا جمالك الوحيد ، أنا عندك منبع الحسن الخالد .

هو :

من أنت ؟

هي :

من أنا ؟ ألا تعرفني ؟ إني أبغضك .

هو :

إنها لا تبغضني ؟ إنها تحبني ، إنها لا تحب « أسرتسن » ...
آه ... الغيرة .

— ١١٠ —

هي :

الغيرة ؟!

هو :

جعران مخيف يسير فوق شغاف قلب ..

هي : (تضحك)

أنا ؟ أغار من تمثال ؟ أغار من تمثال ؟ أنا أغار من جمال
كاذب !

هو :

أنا الذى يغار من زوجها « أسرتسن » . إنه إلى جانبها أبداً ...
فوق عرش واحد ... نحوطهما هالة من أنفاس الآلهة ... وتحفهما
العبيد بمراوح النخيل .

هي :

أنت فى حلم ... أقسم أنك فى حلم .

هو :

بل فى يقظة هنيئة ... إنها معى أبداً ، إنها ترنو إلى بعينين من
ذهب .

— ١١١ —

هى :

أيها النائم ... وعيناي أنا ... ألا تراهما ؟

هو :

من أنت ؟

هى :

انظر إلى عيني .

هو :

عيناك من نحاس .

هى :

إنك لم تبصرهما ، أنت لا تريد أن تبصرهما ، آه . لم صنع هذا

التمثال ؟

هو :

نفريت ... رأسك اللامع بين يدي كوكب أسود بين يدي

إله ، كوكب لا نهار له .

هى :

ورأسى أنا أيها المجنون . ألا تراه ؟

— ١١٢ —

هو :

من أنت ؟

هى :

انظر إلى شعري الأسود اللامع .

هو :

رأسك ليل له نهار .

هى :

إني أمقتك مقتاً شديداً . وأبغضك أكثر مما تبغضنى ، وأمقت
من تحب ، وأبغض هذا التمثال .

هو :

نفريت ! أنت لى وحدى ، أنت كوكبى ، فلنسيح سويا فى
بحار الفضاء تاركين خلفنا أسرتسن ... ولنبحث عن جزيرة الهناء
الدائم ... تلك الجزيرة التى خلقتها الآلهة لأنفسها ثم فقدتها ...
هلمى بنا نبحث عنها معاً فربما كان حظنا أوفر من حظ الآلهة .

هى :

أقسم أنك فى حلم ، لكنى سأوقظك ...

— ١١٣ —

هو :

نفريت .. جزيرة الهناء الدائم ليست في محيطات الفضاء كما
تزعم الآلهة ... عبثاً تبحث عنها الآلهة في محيطات الأثير .. جزيرة
الهناء الدائم المفقودة لا يعرف مقرها غيرى ... ميلى بأذنك نحوى
كى أمس لك بمكانها . أتدريين أين جزيرة الهناء الدائم ؟ هى ليست
في محيطات الفضاء ، هى في محيط ... عينيك ..

هى :

محيط عينها ... سأجعلك تفيق من تأثير عينها . انظر ؟ ماذا
ترى بيدى ؟

(تأتى بمطرقة من الحديد)

هو :

لا تقرى نفريت .

هى : (تعظم رأس الجنال)

انظر هذا الكوكب الأسود تمحوه المطرقة !

هو :

آه ..

(عهد الشيطان)

— ١١٤ —

هى :

وهذا الجسد الجميل الحار يتفتت قطعاً باردة تحت ضربات
المطرقة ...

هو :

آه ..

هى :

والآن .. انهض واجمع أجزاء نفريت الخالدة !!

هو : (يفيق)

أين أنا ؟ ... أحس دواراً ، أين الرأس اللامع ؟ ...

هى :

هاهى ذى تحت قدمى نفريت ورأسها اللامع ... وعيناها
اللامعتان اللتان أنامتاك طويلاً ... الآن أنت لى وحدى .

هو :

أين أنا وأين كنت ؟

هى :

لست أدرى أين كنت ! . إنما أنت الآن هنا معى وقد عدت

— ١١٥ —

إلى ...

هو : (ينظر إليها مليا)

أيتها العزيزة ، أنا هنا معك ! اجلسى إلى جانبى .

هى :

لماذا تطيل إلى النظر هكذا ؟!

هو :

كأن رأسك شمس سوداء ...

هى :

بل ليل له نهار ..

هو :

كوكب من الأبنوس ... وعيناك ، كأن عينيك من ذهب ..

هى :

عيناى من نحاس ..

هو :

عيناك بحيرتان صافيتان يسبح فى إحداهما الحب وفى الأخرى

... الحب !

— ١١٦ —

هي :

ألى هذا القول أم لنفريت ؟

هو :

من نفريت ؟

هي :

ألا تعرفها ؟

هو :

لا أعرف سواك يا عزيزتى فى الوجود . ما أجملك ! كم أود لو
أتناول رأسك الأبنوسى بين يدى وأرشف من فمك رحيقاً فى لون
الورد . بل خمرأ من عصير اللآلى عفى كأس من ورد .

هي :

أرجو منك ألا تخاطبنى بما كنت تخاطب به نفريت ..

هو :

من نفريت ؟

هي :

ألم ترها ؟

— ١١٧ —

هو :

كلا ... لم أر غيرك . إني أريد أن أبحث في محيط عينيك عن
الهناء الدائم .

هي :

دعني ! إنك ترى في الآن ما كنت ترى في الأخرى .

هو :

من هي الأخرى ! ليس في الحياة غيرك أنت ، لأن الطبيعة لن
تخلق سواك . وأى إله يصنع مثيلك دون أن يتهم بالتزييف !

هي :

آه ! هذا ما قلته لها أيضاً ! ...

هو :

لمن ؟

هي :

أترى ...

هو :

ماذا ؟

— ۱۱۸ —

ہی :

تری اکنت انا ہی ؟ ام شبحہا ؟

ہو :

من ہی ؟

ہی :

أشربت شيئاً ؟

ہو :

کلا .

ہی :

أتذكر أسطورة « السكير وزوجته ؟ » لقد كان يسرق حلی
زوجته کی یسبغہ علی خلیلته ، ثم يسرق حلی خلیلته کی یخلعه
علی زوجته .

ہو :

ومن خلیلته ؟

ہی :

زوجته .

عدو إبليس

— ١٢١ —

(« عزرائيل » وقد انصرف عن دار النبي « محمد »

بعد وفاته يرى « إبليس » مقبلاً فرحاً مبتهجاً ...)

إبليس : هل قبضت روحه ؟

عزرائيل : وما شأنك وهذا ، أخزأك الله ؟

إبليس : نعم ، نعم ، لقد مات . أليس هذا صوت ابنته فاطمة

تبكي وتصيح : « أبتاه ، أبتاه . أجاوب رباً دعاه ، يا

أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ! يا أبتاه إلى جبريل

ننعاه ! »

عزرائيل : وما يعنيك من هذا الأمر ؟

إبليس : أوليس هذا أيضاً صوت زوجته عائشة في بكاء وشهيق

: « واحرق قلباه ! وامصيتهاه ! الآن قد انقطع عنا خبر

السماء ! »

— ١٢٢ —

عزرائيل : اغرب عن هذا المكان !

إبليس : ثم ها هو ذا صوت نسائه كلهن ييكن : « واثكلاه !
واثكلاه ! »

عزرائيل : اغرب عن هذا المكان !

إبليس : ما أجمل هذا النهار ... إن نفسى لتكاد تتفجر شعراً
وغناء . أصغ إلى هذه الأغنية :

ذهب عدوى إلى الفناء

اليوم عيى إلى الغناء

عزرائيل : صه قبحك الله وقبح صوتك !

إبليس : صوتى منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حراً فى أرجاء
الأرض . صوتى منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك
القلوب التى كانت تميل عنى لتتلقى أخبار السماء .
نعم الآن قد انقطع عن الأرض خير السماء . لقد عاد
إلى ملك الأرض من جديد .. وافرحناه ! وافرحناه !
عزرائيل : خسعت ! إن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس ،
فهيهات بعد اليوم أن يُصغوا إلى صوتك !

— ١٢٣ —

إبليس : إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم . إني أعرف كيف
أمر بأناملى مرأ رقيقاً على أوتار قلوبهم ، فيذهلون ،
وأغنى بصوتى هذا غناء شجياً فيطربون ... إنك لا
تعرف ما هى الأغاني التى أغنيهاهم . إني أغنيهم أغاني
الأرض لا أغاني السماء ! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة
... ولكن لأجل قريب . لا تنس أنهم خلقوا من طين
الأرض . لا شيء يهز كيانهم غير أغاني الأرض !
عزرائيل : إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء .
إبليس : نعم ، عندما يشير لهم إليها النبي بأصبعه ، فإذا ولّى ...
عادت رؤوسهم تنخفض نحو الأرض . إنهم كالسنبله
التي لا يرفعها غير الأصبع ، فإذا تركت سقطت .
عزرائيل : (كالمخاطب لنفسه) عجباً ! ولماذا إذن رضى الله أن
يقبض نبيه ؟! إن الله حكمة ، أجل ، أجل . أنسييت
أيها الخاسر أن النبي إنما يأتي للتبليغ ويمضى . إنه جاء
بالدين إنه يذهب ولكن الدين باق . الدين هو الأصبع
الدائمة التي لا تنفك تقيم المعوج . لا تفرح إذن كثيراً

— ١٢٤ —

بحوت النبی . ما مات غير الجسد الزائل . أما المبادئ
والتعاليم فهي قائمة في وجه ريحك العاتية دائماً ... ما
الرسول في الحقيقة غير الرسالة ... والرسالة لا تموت .

إبليس : نعم ، نعم .

عزرائيل : ما بالك وجمت ! إن على وجهك الآن لغبرة تزيد
قبحاً على قبحه ...

إبليس : الرسالة والدين والتعاليم .. هذا صحيح ... ولكن ...
تلك أشياء لم تخفني قط ... فقد استطعت فيما مضى
أن أنزع عنها بعض قوتها ... إن المسيح قد بشر بالمثل
الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء . وذهب وقد
ترك في الأرض قديسين وخلفاء ساروا على سنته في
نبد متع الأرض والانقطاع مترهبين في الصوامع والبيع
والصحارى ورؤوس الجبال يتأملون وجه الله
وحده ، ناسين أو متناسين هذه الأرض التي من
عناصرها صنعت أجسامهم .. هنا تراءيت لهم ولمن
تبعهم في صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه ،

— ١٢٥ —

وخاطبت أجسامهم بالمنطق الذى تفهمه ، وحدثت
عناصر تركيبهم باللغة التى تعرفها ... فإذا أكثر الناس
يصغون إلّى فى أمور حياتهم ومعاشهم ولا يذكرون
تلك التعاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون فى
أوقاتهم فراغاً للتفكير فى السماء. إني ذكى . إني لم أرد
قط فى حرنى ضد المسيح أن أقتلع المسيحية من
النفوس ، ولكنى أظهرت فى لباقة ما فيها من علو
شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه
ماداموا آدميين ... فليصغوا إذن إلى أغاني الجسد
وأناشيد التراب والطين ... وليطلب العلو من كان
عنده فضل من فراغ ينفقه بعيداً عن الأرض والحياة...
وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفاً روحياً لا
يقتنيه غير خاصة الخاصة ، أولئك الذين لم أستطع أن
أخاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر ...
عزرائيل : لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمداً بدين لا
ينكر منطق الأجساد والعناصر ... دين لا يعرف

— ١٢٦ —

الرهينة ولا إنكار قوانين الأرض ... دين لا يكره أن
يصغى أتباعه إلى أغاني السماء والأرض معاً ... ما
وسائل حربك إذن ضد محمد والإسلام ؟
إبليس : حقاً ... تلك هي المشكلة ! لهذا كان ذلك النبي ألد
عدو لي !

عزرائيل : إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيق عليك الخناق ، وسد كل
ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك ... فماذا أنت
صانع ؟ ..

إبليس : دعني أفكر ...

عزرائيل : فكر طول الأبد ... قلن تظفر ...

إبليس : بل لقد فكرت وظفرت ... الأمر بسيط : يجب على أن
أطمس خصائص هذا الدين ... إني خبرت الناس
لطول لصوقي بهم وعشرتي لهم .. إن الناس يميلون
دائماً إلى التشبه والتشبيه .. هذه القروذ الناطقة ...
يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر في فلسفة الأشياء .
غداً عندما يوارى محمد في التراب ... ويصبح ذكراً

— ١٢٧ —

وطيفاً كموسى والمسيح لن يفرق الناس بين محمد
وموسى والمسيح ، بل ربما قبل أن يواروه فى الحفرة ...
انظر ... أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه ؟
أصغ إليه ...
عزرائيل : إياك أن توسوس له بشيء .
إبليس : أصغ إليه ..

(عمر بن الخطاب يقوم فى الناس صائحا)
عمر : لا أسمع أحداً يقول : إن محمداً قد مات ؛ ولكنه
أرسل إليه كما أرسل إلى موسى ، فلبث عن قومه أربعين
ليلة . والله إني لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم
يزعمون أنه مات !

عزرائيل : عجباً ! ما هذا الذى يقول ؟
إبليس : أرايت ؟ إنهم قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب !
عزرائيل : كذبت ! إنما هى وسوسة منك !
إبليس : صه ! انظر ! هذا أيضا رجل من بين الناس يريد أن
يقول شيئا ..

— ١٢٨ —

(ينهض أحد الناس صائحا)

أحد الناس إن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى وليرجعن !

عزرائيل : رباه ! ماذا أسمع !

إبليس : أ رأيت ؟ إنهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه في

الأثواب !

عزرائيل : لست أصدق ما أرى وما أسمع .

إبليس : لقد قلت لك إني أعرف منك بالبشر .

عزرائيل : اللهم نورك ! كيف خفى على هؤلاء أن دينهم لم يكن

تكريراً لما سبقه من أديان ! ... اللهم إنك منزّه عن

اللغو والتكرار !

إبليس : ما أبهج هذا النهار ؟ ألا تطربك أغنيتي :

ذهب عدوى إلى الفناء

اليوم عيى إلى الغناء

عزرائيل : آه ، لو استطعت أن أبطش بك ...

إبليس : اقبض روحى إن قدرت ...

عزرائيل : ليس لك روح يقبض .

— ١٢٩ —

إبليس : بل لى روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان !
عزرائيل : يداى حقاً لا تستطيعان ؛ ولكن يد رضيع تستطيع ...
إن روحك ليزهق فى اليوم ألوف المرات ... إن روحك
لينطفئ فى قلب كل مؤمن ومؤمنة ومحسن ومحسنة
وخير وخيرة ... إن روحك مارد من دخان يستطيع
طفل بكلمة طيبة أن يحبسه فى قمقم من نحاس !
إبليس : ولكنى لا أموت ولا أذهب إلى الفناء ... لأنى سلطان
الأرض وروح الأرض ... ولن أترك الأرض ما بقيت
دودة تسمى فى الأرض .

عزرائيل : ابق ما شئت فى الأرض ولكنك لن تقوى على دحر
أعدائك ..

إبليس : عجباً لك ! أو لم تر كيف أنى فى لحظة استطعت أن
أغير معنى الدين الذى قضى محمد حياته كلها فى تجليته
وإظهاره وتوضيحه ... ؟ ألم يذكر محمد قومه فى كل
وقت أنه بشر يوحى إليه ... وأنه يحيا ويموت كبقية
الناس ... وأن دينه هو دين الحياة ... الذى يحل للناس
كل وسائل العيش الصالح على هذا الأرض ... وما دام
دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشرى ... فلا ينبغي

(عهد الشيطان)

— ١٣٠ —

أن يؤلفه الناس كما ألهوا المسيح ، ولا أن ينكروا إمكان
موته كما فعلوا مع المسيح ... أليس هذا معنى دينه ؟
فكيف إذن بدل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسرون نحو
فكرة التآليه ؟ ..

عزرائيل : إنهم لم يغيروا شيئاً ... ولئن وقع في نفسك شيء من
كلام عمر بن الخطاب ، فهو ولا ريب قد قال ما قال
خوفاً من الردة !

إبليس : ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد ...
إنهم إذن كانوا يعبدون محمداً !

عزرائيل : اللهم ألق نورك في صدور الناس !

إبليس : هيهات ! إن ما تسميه « وسوستى » قد استقر الساعة
في صدور الناس ..

عزرائيل : نخسئت أيها الخاسر .. انظر .. انظر ..

إبليس : ماذا ؟ من هذا ؟

عزرائيل : هذا أبو بكر يقوم في الناس ... أصغ إليه ...

(أبو بكر ينهض في الناس صائحا)

— ١٣١ —

أبو بكر : أيها الناس .. أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن
محمداً قد مات ... ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا
يموت !

عزرائيل : وافرحناه ... أسمعت ؟

إبليس : ؟؟؟

عزرائيل : انظر أيضاً ... انظر ... هذا العباس يريد أن يقول
شيئاً ...

(العباس يقوم في الناس صائعا)

العباس : أيها الناس ... والله الذي لا إله إلا هو ، لقد ذاق رسول
الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... فادفنوا
صاحبكم ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً
واضحاً ... أحل الحلال وحرم الحرام ... ونكح
وطلق وحارب وسالم ... وما كان راعى غنم يتبع بها
رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله
فيكم !

— ١٣٢ —

(عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحا صيحة

انتصار)

عزرائيل : ماذا تقول الآن في هذا ؟ اغرب الآن عن هذا المكان

... لقد ظهر الإسلام ، وتألق روح هذا الدين ... !

فوق السحب

— ١٣٥ —

حضر إلى ذات صباح مندوب إحدى الصحف ، وأخبرني أن
مكاني محجوز في الطائرة الذاهبة إلى الإسكندرية في اليوم الذي
أختاره والساعة التي أحددتها فترددت ... ولكنه أسرع يقول لي :
— إن سفر الأستاذ بالطيارة له قيمته من الوجهة الصحفية !
فنظرت إليه بذهن شارد وقلت كالمخاطب لنفسي :
— وإذا سقطت الطائرة بالأستاذ ؟!
فأسرع يقول دون أن يتبصر في قوله :
— يكون أحسن وأتم ، فهو كذلك خير له قيمته من الوجهة
الصحفية !
فأفقت في الحال :
— شيء جميل !

— ١٣٦ —

وتنبه الصحفي لزلة لسانه وارتبك واعتذر :

— غرضى يا أستاذ ..

— غرضك ظاهر من أوله ، ...

— من يعلم ؟ ... ربما عدت إلينا بالسلامة ...

— ربما ! ؟؟

— قصدى أقول إنك إن شاء الله راجع بالسلامة منشرح

الصدر غير نادم على المخاطرة ، وما فاز باللذة إلا الجسور !

ومضى هذا الإبلis العصرى يزىن إلى لا الهبوط من السماء

إلى الأرض ، بل ترك الأرض والصعود إلى السماء ! ويتحدث

عن جمال الرحلة الجوية فى ذاتها بغض النظر عن المقال المطلوب .

وتمت الغواية وقبلت آخر الأمر ، وانصرف عني الصحفي راضياً

ظافراً فى الحالين مقالتي أو حياتي !!

وجلست أفكر قليلا . لقد كان على أن أسافر حقيقة إلى

الإسكندرية بعد يومين لحضور عقد زواج أحد الأصدقاء . وكان

على أن أصاحب « العريس » من القاهرة إلى الإسكندرية . فقلت

— ١٢٧ —

في نفسى :

— فكرة . لماذا لا أغرى « العريس » بالسفر معى في

الطيارة ...

ولم أضع وقتاً . وذهبت من فورى إلى ذلك الصديق السعيد
فأنبأته الخبر واقترحت عليه هذا السفر فاصفر وجهه :

— طيارة !؟

وأطرق يفكر فى « حجج » يتذرع بها دفعاً لهذا البلاء !
وكأنه اهتدى إلى إحداها فقال :

— أنسيت أن معى حقبة كبيرة بها «الفراك » والقمصان
المنشأة وملابس أخرى داخلية وخارجية .

— اطمئن ! لكل راكب الحق فى ١٥ كيلو زيادة على وزنه .
فقال فى لهجة العزم القاطع :

— مستحيل !

— خفت !؟

— ليس الخوف . لكنى لا أرى معنى للسفر بالطيارة .

— المعنى كل المعنى فى سفرك الآن بالطيارة . فأنت ذاهب إلى

— ١٣٨ —

مروسلك التي تنتظرك . وليس أحب إلى قلبها من أن تعرف أنك
ذاهب إليها طائراً من فرط الشوق . أنسيت قول ذلك الأعرابي
الولهان :

أسرب القطاهل من يعير جناحه

لعلى إلى من قد هويت أطير .
عذر ذلك الأعرابي واضح . أما أنت فما عذرك يا من تجد في
هذا العصر سرباً من « قطا » شركة مصر ذات الأجنحة القوية
والمحركات الكهربائية ؟
فلمعت عين صاحبي وأعجبه فكرة الطيران إلى عروسه .
ووجد فيها شعراً وخيالاً . فأذعن وقال :
— غلبتني .

وانصرف يعد العدة . وبقيت أنا أمتع نفسي بلذة الظفر بنجاح
الإغراء . ولا أنكر أني أحسست الاطمئنان يجرى في دمي . فأنا
أخشى دائماً أن يتفرد بي « القدر » وجهها لوجه . ويخيل إلى أن
بيننا مبارزة خفية سلاحها السخرية الخطرة . وأعتقد أنه ينبغي لي
أن أختفي دائماً وراء منكبي رجل كتبت له السعادة . تلك هي
« التيممة » التي تقيني شر القدر . إن من الأمثال الشعبية التي

— ١٣٩ —

أحفظها مثلاً أو من به : (ضع قدمك في « مركوب » السعيد
تسعد) . وهذا « العريس » رجل سعيد طيب القلب والسريرة
ممتلئ الجسم صحة وقوة وإيماناً بالحياة ولا أظن ساعة مثله قد
حانت . ويخيل إلى أن من الناس من يشيح الموت عنهم بوجهه كما
يشيح إبليس عن المصحف أو الصليب . من أجل ذلك حرصت
كل الحرص أن أكون في ركاب هذا « السعيد » حتى لا يرانى
القدر ولا يجروء على النظر إلينا بسوء .

وجاء يوم السفر وذهبت إلى المطار وجعلت عيناى الزائعتان
تبحثان عن « العريس » فى كل مكان ؛ ودق الجرس ووقفت
الطيارة المسافرة تأخذ مؤونتها من الزيت والبنزين . وتم وزنى مع
عصاى « ستين » كيلو لا أكثر ولا أقل . وطلب إلى موظفو
الشركة المبادرة بالركوب . فالتفت يميناً وشمالاً .

فقال لى أحدهم :

— أنتتظر أحداً ؟

فأومأت بالإيجاب . فقال :

— فات الوقت . ولن يأتى أحد والطيارة قائمة فتفضل !.

— ١٤٠ —

عندئذ أدركت أن العريس قد هرب . وحدثتني نفسي أن
أتخلف أنا أيضاً وأعود أدراجي . ولكن موظف المطار استعجلني
قائلاً :

— من حسن حظك أنه ليس اليوم في الطائرة غيرك .
وجذبتني من ذراعي في رفق ومشينا حتى دنونا من السلم المدلى
من باب الطائرة وليس بها أحد حقيقة . ولكن قد خيل إلى أني أرى
فيها شخصاً هو لا شك « القدر » أو « الشيطان » في شبه بذلة
رسمية سوداء وهو ييسم لي ابتسامة صفراء . فما تمالكت وقلت
للموظف في ذعر :

— أنا وحدي في الطائرة .

— نعم من حسن الحظ . فأنت كأنك قائم بطائرة خاصة .
— لا . لا . لا .. أشكركم جداً . لا ضرورة لقيام طائرة خاصة من
أجلي ... هذا شرف عظيم ...

وأردت أن أبتعد عن السلم وأن أهرب من المطار .. ولكن ..
فجأة ظهرت سيارة تأتي بسرعة لمحت فيها الصحفي وكان قد
أخبرني أنه ربما جاء المطار لتوديعي . ولعله في واقع الأمر ما جاء

— ١٤١ —

إلا ليطمئن ويراني بعينه صاعداً في الجو . فلم أجد مفزاً . وعدت
إلى السلم صاعراً وأنا ألوح له بيدي في غير حماس رداً على تحيته
الخالصة وتوديعه الحار . وأجلسني الموظف المختص في آخر مقعد
قرب الذيل وأراني مكان القطن أضعه في أذني إذا أزعجني صوت
المحركات . وأراني آنية من الورق تنفعني إذا أصابني جوار وقى
وأقفل على الباب . ورفع السلم وأدير المحركات . وارتفعت وأنا
أقول في نفسي :

— إذا سقطت الطائرة فإن الجرائد ستنتشر الخبر تحت عنوان
« ولكن الله سلم » . وستزف التهنئة إذ لم يكن بالطيوة من حسن
الحظ ركاب . فما أجمل هذه النهاية !!
ولم تلبث الطائرة أن امتطت الجو وثبتت عليه ومخرت فيه ولم
يعد يخيّل إلى أنني معلق في فضاء . بل أن فكرة الفضاء نفسها قد
ذهبت من عالم إحساسى . وقلت في نفسي :

— عجباً . كم من الأخطاء تسبح في أذهاننا كأنها الجرائم .
كلمة « الفضاء » واحدة منها . ليس هناك فضاء . وإن الطائرة
لتسير على شيء هو أثبت مادة من الأرض تحت عجلات القطار

— ١٤٢ —

.. ونظرت من النافذة فإذا منظر لن أنساه . رأيت القطر المصرى
تحتى كأنه خريطة جغرافية كبيرة مصنوعة من الجبس الملون . وما
أنا إلا ذبابة أو مخلوق وهمى كمخلوقات « سويفت » يركب
جناح بعوضة هائمة فوق هذه الخريطة . فهذا النيل العظيم بفروعه
ورياحاته ليس إلا قنوات صغيرة كقنوات الحارات فى اليوم
المطير ، يلعب فيها الصبيان ويقيمون عليها السدود من الوحل
والطين . وهذه المدن الصغيرة أو الكبيرة ليست إلا خلايا نحل
وأعشاش عصافير ، وهذه الحقول والغيطان فهى عجب آخر :
كل أرض مصر الخصبة ليست إلا سجادة « مودرن » برسومها
ذات الخطوط المربعة والمثلثة والمستطيلة . وقد صبغت بالأصفر
والأخضر والأسود . ألوان ثلاثة هى وحدها التى تلعب وتجري
وتتوزع فى أنحاء هذه السجادة كأنها أنغام ثلاثة فى قطعة موسيقية
ولم أشعر قط أنى أتحرك . ولكنى كنت أشعر أن أحداً يحرك
قليلاً تحت أنظارى هذه السجادة .. هى التى تتغير فى أوضاعها
وتكشف لى عن بعض حدودها ودقائقها . أما أنا فشئ ثابت
ينظر من عل كأنه إله . وأمعنت النظر من الجهتين ومن النافذتين .

— ١٤٣ —

فرأيت طرف السجادة الغربى قد تهدل على شبه رمال ... إنها قد وضعت من غير شك فى صحراء . كما يضع الناسك سجادة الصلاة فى الخلاء .

و لم يمض قليل حتى جذبت يد خفية هذه السجادة فإذا بى لا أرى غير الصحراء تحت أنظارى ، كأنها بحر قد عبث النسيم بوجهه الصافى وأثار فيه تموجات خفيفة رقيقة لم تمسها بعد إصبع . تلك بقاع بكر من الصحراء لا يمكن أن تفاجئها غير عين الله وعين بعض الطيور النادرة ، أنا الآن أحدها بفضل هذه الأجنحة المصنوعة من القطن والخشب !

وذهب هذا البحر الأصفر . وبدأت عيني ترى أطراف ذلك البحر الأزرق يبرق عن بعد كأنه فص فيروز فى كف الكون وأطلت النظر واقترب منى البحر حتى انطرح تحت أقدامى عارياً كتمثال امرأة .. من البلور . ورأيت فيه الثغر صغيراً كأى يضحك ... عن بضع سفن شراعية بيضاء وبخارية كألاعيب الأطفال . فعلمت أنى قد وصلت سالماً .

وهبط بى ذلك الجناح السحري . فإذا أنا فى مطار الدخيلة وإد

— ١٤٤ —

الوقت الذى مضى بين القاهرة والإسكندرية لحظة كالحلم لم أفكر
أثناءها فى موت ولا فى حياة ...
لقد كنت فى عالم لا يعرف الموت والحياة : لقد كنت فوق
السحب !!

كن عدو للمرأة

— ١٤٧ —

صحت فى يوم من أيام الربيع ، هب فيه على وجهى نسيم
لطيف ووقعت عيني على أغصان تتأيل وأزهار مفتحة تتضاحك :
— أيها الشيطان ! يا شيطان الفن ! يا سجانى وجلادى !
أطلقنى من أغلالك قليلا ! إني أريد الحب ! إني أريد المرأة !
فابتسم شيطانى ولم يزد على أن قال ساخرأ :
— المرأة مخلوق تافه !
— كلا .

— بلى . إنها ليست جديرة بك أيها الفنان الخلاق . إنها مخلوق
تافه ، صنعت من ضلع تافه من أضلاع آدم وخرجت الجنة
وأخرجته بسبب تافه . فهي فى الحقيقة ما وجدت إلا لتعشو
ثغرات الحياة ، وتسد فراغ الأيام والليالى بالأشياء التافهة .
— ولكن المرأة هى التى تدخلنا النعيم .

— ١٤٨ —

— وهي التي تخرجك منه . وقد أخرجت آدم من قبل بالفعل .
.. فاحذر أن تقبل جنة وناراً من صنع المرأة . واحرص كل الحرص
أن تكون سيد نفسك ، وأن تصنع لنفسك نعيماً وجحيماً
لا تعرفهما المرأة . إن جنتك لا ينبغي أن يكون فيها حية ولا تفاح .
فهى جنة هادئة صافية .. جنة الفكر والتأمل والخلق والإبداع إذا
دخلتها امرأة حلت فيها الفوضى ، وانفردت عقود درها المنظوم ،
وتحطمت تماثيلها المرمية . أما جحيملك فهو مملوء بعذاب الشك
والقلق الفكرى ، وعذاب القصور عن إدراك الكمال الفنى ،
آلام لا تفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها . فأنت ترى
أن فى نفسك « منطقة مقدسة » لا أسمع ولا ينبغي أنت أن تسمح
لامرأة بالدنو منها .

— ولكنى أتوق أن أعيش لحظة مع امرأة !

— تستطيع أن تعيش دائماً مع شبح امرأة . ولكن أى امرأة ؟
إن تلك التى سمحت لك بإدخالها جنتك ينبغي أن تكون امرأة
لا ككل النساء . إنها النور بغير مصباح . وهى قطرات الندى بغير
خمر . هى عروس لها جسم المرأة وكل شىء جميل فى المرأة ، متدثرة

— ١٤٩ —

في رداء من خيالك الذهبي ، وكل ما هو جميل في نفسك قد أسبغته
أنت عليها حللاً رائعة . هي ملكة جنتك التي توحى إليك بخير ما
تخرج وما تبدع . فالمرأة التي لها شأن في حياتك هي كما ترى ينبغي
أن تكون من صنع يدك ومن مخلوقات رأسك .

— إن الحقيقة أحياناً أبرع من الخيال ، وإن الحياة لقديرة أحياناً
أن تقذف إلى سطحها بلؤلؤة في شكل امرأة تسطع من بين ملايين
أصدافها . فلماذا أيها الشيطان لا تسمح لي مرة بما سمحت به
للآخرين ؟

— لا أستطيع أن أسمح لك ، ولست أنت وحدك ، فلقد
وجدت هذه الأسطر الدامغة في ورقة منفصلة بين مخلفات بينهوفن
: « الحب ، ليس غير الحب ، هو وحده الذي يستطيع أن يجعل
حياتي سعيدة . آه يا إلهي دعني أجدها أخيراً ، تلك التي في
مقدورها أن تدعم فضائي ، تلك التي قد تسمح لي أن تكون زوجتي » .
..ومات بينهوفن ولم يسمح له .

— لماذا ؟ .

— لأنك أيها الفنان عبقرية خالقة ، وجدت لتخلق وتعطي

— ١٥٠ —

لا لتسأل وتأخذ .

— مثل الطبيعة .

— نعم ، أنت والطبيعة سيان . كلا كما يعيش في الحرمان .

وكلا كما سر وجوده أن يعطى ولا يأخذ .

— آه ، ولكن الطبيعة قوية جبارة أما أنا فأدمى مسكين . إنها

لا تتألم أما أنا فأتألم إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمي ولم يسمح

لي بحظ قليل من الهناء الذي يسخر به على بقية الآدميين !

— الآدميين ؟ ومن قال إنك منهم أيها الفنان ! عندما كتب

عليك أن تضع على منكبيك رداء « العبقريّة والخلق » خلع عنك

في الحال بعض خصائص الآدميين !

من الأبدية

لو كنت في الأبدية ماذا أشاهد ؟

لطالما خطر لي هذا السؤال كلما شاهدت جنازة مارة في الطريق . ترى لو سمع الميت ما يقال خلف النعش من الكلام ، ماذا كان يصنع ؟ لو علم أن هؤلاء المشيعين لا يتكلمون عنه طول الوقت . وأن فيهم من يستنزل عليه اللعنة إذا طال المشي ، ولم يبد بعد أثر المسجد الذي سيصلي عليه فيه . وأن منهم من يسلي نفسه وجاره في أثناء السير بحكايات ونوادير قد تدعو إلى الضحك والابتسام . وإن منهم من يتكلم في عمله وتجارته وبيته وغيظه . لو علم الميت أن كل ما خصه هو من كل هذا الكلام الذي يدور خلف خشبته لا يعدو دقائق معدودات ؛ وأن كل ما أنفق من وقت المشيعين في الخشوع لجلال الموت لا يتجاوز لحظات . وأن الصمت الرهيب الذي كان يجب أن يحيط بنعشه لم يدم أكثر من

— ١٥٤ —

دقيقة ، ثم بدأ الهمس يعلو ، والهمهمة ترتفع ، والكلام والثرثرة يدويان بين الصفوف في طنين كطينين الذباب ، ذلك أن الناس غير قديرين على نسيان أنفسهم والسمو عن هذه الأرض والارتفاع عن شؤون حياتهم العادية الصغيرة أكثر من خمس دقائق .

ومع ذلك ، لماذا نريد من الناس الوقوف أمام الموت موقفاً أجلاً من هذا ؛ إن الموت لا يجل ولا يعظم حقاً إلا في نظر من يموت ، في تلك اللحظة التي يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التي عرفها وعرف أهلها إلى مكان مجهول ، فراقاً لارجعة بعده . في تلك اللحظة يرى المحتضر الدنيا تبتعد عنه كما تبتعد المحطة عن أنظار المسافر في قطار . ويرى دموع المودعين من الأهل والخلان تتساقط على باقات الأزهار يقدمونها إليه فيخيل إليه أن ذهابه سيغير وجه الأرض . ولا يعلم أن هؤلاء المودعين سينصرفون من باب المحطة إلى شئونهم ضاحكين كأن لم يحدث شيء . ترى لو رأى الميت كل ذلك في صندوقه وأعطى القدرة على الخروج منه والنهوض . أما كان يصيح في الناس :

— أسمعون أنفسكم مشيعين ؟ انصرفوا أيها اللكعاء !

— ١٥٥ —

إني شخصياً لا أعتقد أن الميت يفعل ذلك أو يقوله لو قدر عليه . إن الميت إذ يجتاز عتبة العالم الآخر ويدخل منطقة « الصفاء » ينظر إلى الناس وأحوالهم من عل كما ينظر الإنسان إلى سرب من النمل يحمل جناح صرصار إلى ثقب في أسفل الجدار . إنه يستكثر على الناس مجرد التحرك في تابوته لينظر إلى ما يفعلون . إنه يستكثر على المادحين والقادحين حتى مجرد ابتسامة سخرية تعلو شفثيه الجافتين الباهتتين .

فهذا السؤال الذي ألقبته على نفسي لا معنى له عند الميت . إنما هو سؤال يملية علينا غرورنا نحن الأحياء .

على أنى على كل حال لو تمنيت شيئاً بعد الموت . لرغبت في أن أقول أنا رأيي في الناس وقد تركتهم ، قبل أن يقولوا هم عنى شيئاً وهذا مستطاع . وقد فعل ذلك فيما أعلم أحد الأمريكان أو الإنجليز غربيي الأطوار . إذ سجل خطبة له في أسطوانة فنوغراف وأوصى المشيعين أن يطلقوها على قبره تنطق بصوته وأنفاسه وضحكاته وكلماته . فماذا يمنعني من أن أصنع مثله . وأن أقوم في الناس خطيباً بعد موتى أقول فيهم :

« سيداتى وسادتى :

« أولاً .. فلتجفف السيدات أعينهن حتى لا يضيع كلامى بين
الشهقات ، وحتى لا تضيع الدموع طلاء وجوههن وصبغة
شفاههن . وهذا هو المهم . فإنى ما زلت حريصاً على أن تكون المرأة
جميلة . فالجمال هو العذر الوحيد الذى به نغفر للمرأة كل تفاهتها
و حماقتها . عفواً . لقد نسيت أنى ميت وأنه ما كان يليق بى أن أوجه
إليكن أيتها السيدات هذه الألفاظ فى مثل هذه اللحظة الرهيبة ،
أنتن ولا ريب تصغين إلى الساعة والغيظ باد عليكم ،
ولولا جلال الموت ، لألقين على قبرى أحذيتكن ذات الكعب
العالى ، إن كل ما ستفعلنه الآن عقاباً لى وامتهاناً لشأنى هو أن
تخفين فى الحال مناديل العبرات العاطرة وتخرجن أصابع الأحمر
الناضرة ، وتنظرن فى مرآة الحقيية الصغيرة وتهزرن أكتافكن قائلة
إحداكن للأخرى : « والنبي الدموع فيه خسارة ! » وهذا ما أريد
أن أصل إليه . وهذه نصيحتى الثمينة لكن معشر الأحياء من
النساء : حذار أن تتلفن هدباً واحداً من أهدابكن الجميلة من أجل
شئ على هذه الأرض . فإن الأرض كلها لا تساوى هدباً واحداً

من أهدابكن !

« أما أنتم أيها الرجال والأصدقاء والمعجبون ، المرتدون السواد على فقيد الأدب ، المحزونون لفداحة المصاب الجلل ، الباكون لما رزئت به العربية والناطقون بالضاد .. إلى آخر هذا الهراء الذى سيملاؤه خطباؤكم وشعراؤكم تلك المرائى البليغة والقصائد العصماء .. وإني لألمح الساعة جيوب بعضكم منتفخة بشعر ونثر قد كتب خاصة للتأيين . ولعل أكثره قد وضع قبل الاحتضار حتى يكون معداً للإلقاء فى الوقت المناسب . ولعل إحدى تلك القصائد قد نشرت اليوم فى صحف الصباح بينما نشر إلى جانبها خبر الوفاة . كأنما القصيدة العصماء قد خرجت من صدر صاحبها ساعة خروج روحى من صدرى ! لم كل هذا الإسراع ؟ ألا يتركنى الأدب وشأنى وقد صرت تراباً . أیظل يلاحقنى شیطان الفن ویصیح فى أثرى وأنا أفر منه إلى عالم أرجو أن لا أرى وجهه فيه . أما يكفيه أنه أضاع علىّ حياة نابضة . أنا الذى صنعه خالقه من لحم ودم ، ووضع فى دنيا جميلة زاهرة ، وقال له : « انطلق وعش حياتك فى هذه الحياة » . فلم أفعل ذلك . ولكنى أحلت

— ١٥٨ —

لحمى ودمى إلى ورق ومداد . آه .. إنكم لو أنصفتُم معشر المشيعين
لوضعتم جثتى مع كتيبى وأشعلتم النار فى كل هذا . عجيباً . إلى
أبصر أحدكم وهو شاب فيما أرى لا يريد أن يصدق ما أقول . وإن
فمه ليرتجف كأنما هو يريد أن يصرخ متحمساً : « فى ذمة
الخلود ، فى ذمة الخلود ! » .

« أيها الصديق الصغير ليس من اللطف أن أضحك الساعة
منك ومن « خلودك » ، وأن أبدد تلك الأحلام التى تخيم على
عشرين ربيعاً من حياتك النضرة كما تخيم خمائل الأزهار على خلوة
المحبين ، ولكنى أقول لك إن كلمتك هذه إن صلحت لسنك
وكان لها عندك أعظم المعانى ، فأنها عندى الآن لا معنى لها ؛
ولست أدري ماذا تقصد بها ! تقصد أنى قد أكون تركت لكم
بعض آثار ربما بقيت . فليكن . ماذا يهمنى أنا من ذلك ؟

« وبعد ... لا أحب أن أستبقيكم وقوفاً أمام قبرى أكثر من
ذلك فإن من بينكم من قد ارتبط بمواعيد سابقة وهو يختلس النظر
فى ساعته من آن لآن . وليس عندى بعد ما أقول لكم ، غير أنى
أرى فى أوائل صفوفكم أصدقاء لى لا يمكن أن أستخف بعواطفى

— ١٥٩ —

نحوهم . ولعل صداقتهم هي خير ما خرجت به من تلك الدار .
« والآن ، اسمحوا لي أن أسكت سكوني الأبدى وأنا أرجو
منكم أن تنصرفوا إلى شؤونكم كأنه لم يحدث شيء فلست في
حاجة إلى كلامكم ؛ وإذا أردتم أن تعقبوا على قولي هذا بشيء في
دنياكم تلك ، فضعوا مكان أسطوانتي هذه : أسطوانة موسيقية
لأحد الموسيقيين الذين كنت أحبهم ، تلك هي اللغة الوحيدة التي
أستطيع أن أفهمها عنكم في كل وقت ... والوداع » .

— ١٦٠ —

فهرست

صفحة	
١١	عهد الشيطان
٢٧	في النوم
٣٧	راديوم السعادة
٥١	في حانة الحياة
٦٣	حقوق على نفسى
٧٥	مع الأميرة الغضبية
٨٥	أمام حوض المرمر
١٠٣	بين الحلم والحقيقة
١١٩	عدو إبليس
١٣٣	فوق السحب
١٤٥	كن عدواً للمرأة
١٥١	من الأبدية

رقم الإيداع ٣١٠٨ / ٨٨

الترقيم الدولي ٥ — ٠٣٨٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة



الشمس ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه